السحر والكهانة والحسد

ابن حجر العسقلانى

اهداءات ٢٠٠٢

أ/حسين كامل السيد بك فهمى

الاسكندرية

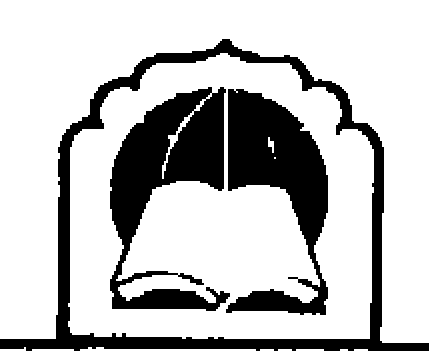
السحر والكهانة والحسد

للإمام الحافظ
أحمد بن علي بن حجر العسقلاني

جمع وإعداد
عبد الله حجاج

مكتبة التراث الإسلامي
٨ شارع الجمهورية - عابدين ت : ٣٩١١٣٩٧





٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة ت : ٣٩١١٣٩٧ فاكس : ٣٩١٣٤٠٦

مقـدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين .. والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

وبعد :

فهـذه قضية قديمة عاشت فى وجدان الإنسان منذ كان على هذه الأرض ، فقد وهبه الله نفسا متطلعة ، تخشى المجهول ، وتسعى إلى معرفة مايستتر عنها ، وتبحث فيما وراء المحسوس ، وتريد أن تصل إلى رأى فيه .. ومن هنا كان الكلام الكثير فى تلك الموضوعات :

السحر ، والكهانة ، والعدوى ، والتطير والتشاؤم ، وتأثير العين على بعض الأشياء .. إلى آخر هذه القضايا التى تشغل البال ويختلف المفسرون حولها ، ويبقى الكثير منها سرا محجوبا ، وإذا ظهرت له بعض الآثار فإنما تظهر بطرق خفية لايدرى كنهها الباحثون ، ولا يقطع فيها متحدث برأى ..

وإزاء هذه الحيرة التى تنتاب الإنسان فى مثل هذه الموضوعات كان للأحاديث النبوية نصيب من الإسهام فى تنوير النفس والعقل فى هذا المجال .. إذ تناثر فى «صحيح البخارى» وفى أبواب متفرقة منه عدة أحاديث ، شرحها الإمام ابن حجر العسقلانى ضمن ماشرح

فى كتابه « فتح البارى » ولقد جمعنا هذه الأحاديث بعضها إلى بعض ، وربطنا ماتفرق منها لنخرج إلى القارىء بهذا الكتاب الذى نضعه بين يديه ، لعل فيه مايشفى غله ، أو يروى ظمأ . ولتمام الفائدة قمنا بعون الله تعالى بإضافه بعض الفصول من كتاب بدائع الفوائد للإمام شمس الدين ابن قيم الجوزيه عن مراتب الحسد وكيفية الوقاية من شر الحاسد . نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن يقينا شر الحاسد إذا حسد وأن يرزقنا التقوى والعلم النافع .

وصلى اللهم وسلم وبارك على سيد الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد بن عبدالله وعلى آله وصحبه – وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله حجاج

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتُنَّ إلّا وأنتم مسلمون ﴾[1] ، ﴿ ياأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبَثَّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً ﴾[2] ، ﴿ ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً * يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً ﴾[3] .

أما بعـد .. فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

---

(١) سورة آل عمران إلا ١٠٢ .
(٢) سورة النساء الآية ١ .
(٣) سورة الأحزاب الآيتان ٧٠ و٧١ .

هذه دراسات جيدة ومفيدة لعدة موضوعات ، شغلت أذهان الناس لفترات زمنية متطاولة ، ومازالت تشغلهم حتى اليوم .

ولقد حاول كثير من الناس أن يكتبوا فيها ، وأن يتحدثوا عنها ، ولكن كلامهم وحديثهم أخذ اتجاهات شتى ؛ فمنه المقبول المعقول ، ومنه مالا يقبله منطق ، ولا يقره عقل ؛ لأنه رجم بالغيب ، على غير بينة ، ولا هدى ولا كتاب منير .

إن الغيب ، والإيمان بالغيب ، والحديث عن الغيب ، ينبغى أن يكون محدداً ومفيدا ، بما ثبت عن الله ورسوله دونما زيادة أو نقصان ؛ لأن الزيادة فى الغيب كالنقص فيه ضلال وبهتان وقول على الله بغير علم .

وهذا الكتاب الذى قام على جمعه وتبويبه ، أخى الفاضل الاستاذ عبد الله حجاج — صاحب مكتبة التراث الإسلامى — بمصر — كتاب نافع ومفيد ؛ جمع بين دفتيه علماً كثيراً .

وأعظم مافى هذا الكتاب أنه لم يتجاوز السنة الصحيحة ، ويكفى أن نعلم أنه اعتمد — أساساً — فى نقوله الحديثية على البخارى — رحمه الله !

كما أنه اعتمد فى شرح هذه الأحاديث على كتاب أجمعت الأمة على تلقيه بالقبول ، هو كتاب « فتح البارى للحافظ ابن حجر » الذى قال عنه العلماء : « لا هجرة بعد الفتح » .

ومن استعراضنا السريع لفصول هذا الكتاب وفقراته ، نحس لأول وهلة مدى ماحمله للقارىء المسلم من خير وفير ، وعلم غزير . فمن فصول هذا الكتاب :

السحر ــ الكهانة ــ العدوى ــ الطيرة والتشاؤم ــ الهامة الصفر ــ الغول والنوء ــ العين ــ الرقية ــ الفأل ــ وهى موضوعات تدور ــ كما ترى ــ حول أمور كثر فيها الأخذ والردّ ، والقال والقيل .. وكثر فيها ــ وحولها ــ الدسّ والخرافات والانحرافات والفوضى الفكرية ..

لذا ؛ كان من المهم جدا أن تعرض هذه الأمور ، فى هذا الكتاب ، بهذا المنهج الدقيق الأمين .

ولقائل أن يقول: وما الذى فعله «الأخ عبد الله حجاج» أكثر من اقتباس بعض الأبواب والفصول والفقرات من كتاب « الفتح » ثم ضم بعضها إلى بعض ؟

وأقول لهذا القائل : إن استخراج هذه الفصول من (فتح البارى) ، وضم شواردها ، وجمع متفرقها ؛ أمر له قيمته ، وفائدته ــ وخاصة ؛ أن كثيراً من الناس ينوءون بمراجعة هذا الكتاب الضخم .

لذا ؛ فإننّى أشد على يد صاحبى إذ قام بهذا العمل المشكور ، وأتمنى أن يقوم بمثل هذه المحاولة مع موضوعات أخرى .

إن « فتح البارى » موسوعة ثقافية هائلة ، وإن استخراج كنوزها ودفائنها فى هذه الكتيبات الصغيرة ، عمل جليل ؛ إذ أنه يشيع معارف هذه الموسوعة بين الدارسين ، وطلاب العلم .

إن هذا الكتاب على ضآلة حجمه ، وقلة صفحاته ، قام بدور فعال فى مكافحة الخرافة التى أخذت تزحم دنيا الناس وتشوه معتقداتهم .

ولا أملك إلا أن أضع هذه المقدمة الموجزة فى صدر هذا الكتاب لتكون تحية طيبة لناشره وقارئه جميعاً .

د . محمد جميل غازى

رئيس مجلس إدارة المركز الإسلامى العام
لدعاة التوحيد والسنة بالزيتون

التعريف بابن حجر

هو شيخ الإسلام ، وعلم الأعلام ، حافظ عصره ، شهاب الدين ، أبو الفضل أحمد بن على بن محمد بن محمد بن على بن أحمد الشهير بابن حجر .

ونسبه إلى آل حجر ، وهم قوم كانوا يسكنون الجنوب ، من بلاد الجريد وأرضهم قابس .. وهو الكتانى العسقلانى الأصل ، المصرى المولد والنشأة والدار والوفاة ، الشافعى المذهب . ولد فى ثانى عشر من شعبان سنة ثلاث وسبعين وسبعمائة ، الموافقة لسنة ألف وثلاثمائة وثلاث وسبعين ميلادية ، بمصر ، ونشأ يتيما فى كنف أحد أوصياء أبيه .

كان صبيح الوجه ، للقصر أقرب ، له لحية بيضاء ، نحيف الجسم ، فصيح اللسان ، وكان ذا صوت شجى ، واسع الذكاء ، قوى الذاكرة .

حفظ القرآن وهو ابن تسع سنين ، ثم حفظ العمدة ، وألفية الحديث للعراقى ، والحاوى الصغير ، ومختصر ابن الحاجب . وتفقه وتتلمذ على البلقينى ، والبرماوى ، وابن الملقن . وأخذ عن العز بن جماعة غالب العلوم ، كالمنهاج ، وجمع الجوامع وغيرهما .

وحبب إليه الحديث فأقبل عليه بكليته ، وارتحل فى سبيله إلى بلاد الشام والحجاز واليمن .

وقد صنف فى فنون كثيرة : فى المعاجم ، وتخريج الشيوخ ، والأطراف والطرق والشروح وعلوم الحديث وفنونه ورجاله .

ومن مصنفاته : تعليق التعليق ، وصل فيه تعليقات البخارى . فتح البارى شرح صحيح البخارى ، هدى السارى مقدمة فتح البارى ، فوائد الاحتفال فى بيان أحوال الرجال المذكورين فى البخارى . تجريد التفسير فى صحيح البخارى على ترتيب السور .. إلى غير ذلك من المؤلفات الجيدة .

وقد نالت كتبه شهرة عظيمة ، حتى تهادتها الملوك وخاصة فتح البارى . فقد أرسل شاه رخ بن تيمور ملك الشرق رسالة سنة ٨٣٣ إلى السلطان الأشرف برسباى يطلب منه هدايا من جملتها فتح البارى . فجهز له ابن حجر ثلاثة مجلدات من أوائله ، وقد أعاد الطلب مرة أخرى عام ٨٣٩ ، ولم يكن الكتاب قد كمل ، فأرسل إليه قطعة أخرى منه حتى كان زمن الظاهر جقمق فجهزت له نسخة كاملة .

وعندما أكمل ابن حجر فتح البارى عملت وليمة عظيمة بالمكان الذى بناه المؤيد خارج القاهرة ، وذلك فى يوم السبت ثامن شعبان عام ٨٤٢ ، وجلس المصنف ابن حجر على الكرسى وقرأ المجلس الأخير من مصنفه .

ولقد تولى ابن حجر الحكم فى بعض القضايا بأمر من المؤيد ، وكان يرفض دخول القضاء ، ولكن المؤيد ساق بعض أحبائه عليه ليقبل القضاء فقبل ، ولكنه ندم على قبوله وصرح بأنه جنى على نفسه بذلك .

مات — رضى الله عنه — فى أواخر ذى الحجة عام ٨٥٢هـ — ١٤٤٩م وكان له مشهد لم ير مثله . حضره الشيوخ فضلا عن العامة . وشهده السلطان ، وقدم الخليفة للصلاة عليه ، وتزاحم

الأمراء على نعشه ، ودفن تجاه تربة الديلمى بالقرافة .. رحمه الله .

والكتاب الذى نسوقه إلى القارىء اليوم ثمرة من ثمرات قريحة هذا الشيخ الجليل ، وهو لم يعمل على ضمه فى مصنف قائم بذاته ، ولكنها تفاسير وشروح للأحاديث تناثرت فى فتح البارى ، عملنا على جمعها بين دفتى هذا المصنف لنقدمه إلى القارىء كموضوع واحد يسهم فى جلاء ماغمض من هذه القضايا التى لاتزال تشغل البال ..

ولعلنا بهذا نكون قد قدمنا إلى المكتبة الإسلامية مصنفا يملأ بعض الفراغ .. ويسد بعض الأبواب التى تهب منها رياح التساؤلات ولا تجد إجابة صحيحة إلا فى الركون إلى ما قدمه النبى الكريم - ﷺ - إلى أصحابه من توضيح وتفسير سيظل إلى الأبد - إن شاء الله - هو الضياء الهادى للسالكين ، والمرشد الأمين للحائرين ..

وصلاة الله وسلامه على سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله المبعوث رحمة للعالمين ، ورضى الله تبارك وتعالى عن آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ..

ترجم البخارى - رحمه الله - لذلك بقول الله - تعالى - :
﴿ **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ، وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ، وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ، فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ ، وَمَاهُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ ، وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ ، وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ** ﴾(1) . وقوله تعالى : ﴿ **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** ﴾(2) وقوله : ﴿ **أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُم تبصِرُونَ** ﴾(3) وقوله : ﴿ **يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** ﴾(4) وقوله : ﴿ **وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ** ﴾(5) .

قال البخارى : والنفاثات : السواحر ، تسحرون : تعمَّوْنَ .
وأخرج عن عائشة - رضى الله عنها - قالت : سحر رسول الله - ﷺ - رجل من بنى زريق ، يقال له : لبيد بن الأعصم ، حتى كان رسول الله - ﷺ - يخيل إليه أنه كان يفعل الشيء ومافعله .

---

(1) البقرة : ١٠٢ .
(2) طه : ٦٩ .
(3) الأنبياء : ٣ .
(4) طه : ٦٦ .
(5) الفلق : ٤ .

حتى إذا كان ذات يوم – أو ذات ليلة – وهو عندى ، لكنه دعا ودعا ثم قال : « **ياعائشةُ ، أشَعَرْتِ أنَّ اللهَ أفْتَانِي فِيما اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ ؟ أتَانِي رَجُلَانِ ، فَقَعَدَ أحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ ، فَقَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ : مَاوَجَعُ الرَّجُلِ ؟ فقالَ : مَطْبُوبٌ . قالَ : وَمَنْ طَبَّهُ ؟ قَالَ : لَبِيدُ بْنُ الْأَعْصَمِ . قَالَ : فِي أيِّ شَيْءٍ ؟ قَالَ : فِي بِئْرِ ذَرْوَانَ** » فأتاها رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى ناس من أصحابه ، فجاء فقال : « **يَاعَائِشَةُ ، كَأنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ حِنَّاءٍ . وَكَأنَّ رُءُوسَ نَخْلِهاَ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ** » . قلت : يارسول الله ، أفلا استخرجته ؟ قال : « **قَدْ عَافَانِي اللهُ ، فَكَرِهْتُ أنْ أُثِيرَ عَلَى النَّاسِ فِيهِ شَرًّا** » **فَأَمَرَ بِهَا فَدُفِنَتْ** » .

قال البخارى : ويقال : المشاطة : مايخرج من الشعر إذا مشط ، والمشاطة من مشاطة الكتان ..

ماهـو السـحر ؟

قال الحافظ ـــ رحمه الله ـــ : قال الراغب وغيره : السحر يطلق على معان :

أحدها : مالطف ودق ، ومنها سحرت الصبى : خادعته واستملته ، وكل من استمال شيئا فقد سحره ، ومنه إطلاق الشعراء : « سحر العيون » لاستمالتها للنفوس . ومنه قول الأطباء : الطبيعة ساحرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ** ﴾(٦) أى : مصروفون عن المعرفة . ومنه حديث : « إنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْراً » .

---

(٦) الحجر : ١٥

الثانى : مايقع بخداع وتخييلات لا حقيقة لها ، نحو مايفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده ، وإلى ذلك الإشارة بقوله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى** ﴾(٧) وقوله ـــ تعالى: ﴿ **سَحَرُوٓا أَعْيُنَ النَّاسِ** ﴾(٨) ، ومن هنا سموا موسى ساحرا . وقد يستعين فى ذلك بما يكون فيه من خاصية كالحجر المسمى (المغناطيس) .

الثالث : مايحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم ، وإلى ذلك الإشارة بقوله ـــ تعالى : ﴿ **وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾(٩) .

الرابع : مايحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها بزعمهم .

قال ابن حزم : ومنه مايوجد من الطلسمات ، كالطابع المنقوش فيه صورة عقرب فى وقت كون القمر فى العقرب ، فينفع إمساكه من لدغة العقرب ، وكالمشاهد ببعض بلاد الغرب ، وهى سرقسطة ، فإنها لايدخلها ثعبان قط إلا كان بغير إرادته ، وقد يجمع بعضهم بين الأمرين الأخيرين ، كالاستعانة بالشياطين ومخاطبة الكواكب فيكون ذلك أقوى بزعمهم .

قال أبو بكر الرازى فى « الأحكام » : كان أهل بابل قوماً صابئين، يعبدون الكواكب السبعة ، ويسمونها آلهة ، ويعتقدون أنها

---

(٧) طه : ٦٦

(٨) الأعراف : ١٦٦ .

(٩) البقرة : ١٠٢

الفعالة لكل مافى العالم ، وعملوا أوثاناً على أسمائها ، ولكل واحد هيكل فيه صنمه ، يتقرب إليه بما يوافقه — بزعمهم — من أدعية وبخور ، وهم الذين بعث إليهم إبراهيم — عليه السلام — وكانت علومهم أحكام النجوم ، ومع ذلك فكان السحرة منهم يستعملون سائر وجوه السحر ، وينسبونها إلى فعل الكواكب لئلا يبحث عنها ، وينكشف تمويههم . انتهى .

ثم السحر يطلق ويراد به الآلة التى يسحر بها ، ويطلق ويراد به فعل الساحر . والآلة : تارة تكون معنى من المعانى فقط ، كالرقى والنفث فى العقد ، وتارة تكون بالمحسوسات ، كتصوير الصورة على صورة المسحور ، وتارة بجمع الأمرين الحسى والمعنوى ، وهو أبلغ .

هل للسحر حقيقة ؟

واختلف فى السحر ، فقيل : هو تخييل فقط ولا حقيقة له ، وهذا اختيار أبى جعفر الاستراباذى من الشافعية ، وأبى بكر الرازى من الحنفية ، وابن حزم الظاهرى وطائفة . قال النووى : والصحيح أن له حقيقة ، وبه قطع الجمهور ، وعليه عامة العلماء ، ويدل عليه الكتاب والسنة الصحيحة المشهورة . انتهى .

لكن محل النزاع : هل يقع بالسحر انقلاب عين أو لا ؟ فمن قال : إنه تخيل فقط منع ذلك ، ومن قال : إن له حقيقة اختلفوا : هل له تأثير فقط ، بحيث يغير المزاج ، فيكون نوعا من الأمراض ، أو ينتهى إلى الإحالة ، بحيث يصير الجماد حيوانا مثلا ، وعكسه ؟

فالذى عليه الجمهور هو الأول ، وذهبت طائفة قليلة إلى الثانى .
فإن كان بالنظر إلى القدرة الإلهية فمسلم ، وإن كان بالنظر إلى الواقع

فهو محل الخلاف ، فإن كثيراً ممن يدعى ذلك لايستطيع إقامة البرهان عليه .

ونقل الخطابى أن قوما أنكروا السحر مطلقا ، وكأنه عنى القائلين بأنه تخليط فقط ، وإلا فهى مكابرة . وقال المزرى : جمهور العلماء على إثبات السحر وأن له حقيقة ، ونفى بعضهم حقيقته ، وأضاف مايقع منه إلى خيالات باطلة ، وهو مردود لورود النقل بإثبات السحر ، ولأن العقل لاينكر أن الله قد يخرق العادة عند نطق الساحر بكلام ملفق أو تركيب أجسام ، أو مزج بين قوى على ترتيب مخصوص . ونظير ذلك مايقع من حذاق الأطباء ، من مزج بعض العقاقير ببعض ، حتى ينقلب الضار منها بمفرده فيصير بالتركيب نافعا . وقيل : لايزيد تأثير السحر على ماذكر الله — تعالى — فى قوله : ﴿ **يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ** ﴾(١٠) لكون المقام مقام تهويل ، فلو جاز أن يقع به أكثر من ذلك لذكره .

قال المازرى : والصحيح من جهة العقل ، أنه يجوز أن يقع به أكثر من ذلك ، قال : والآية ليست نصا فى منع الزيادة ، ولو قلنا : إنها ظاهرة فى ذلك . ثم قال : والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة : أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر مايريد ، والكرامة لاتحتاج إلى ذلك ، بل إنما تقع غالبا اتفاقا ، وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدى .

ونقل إمام الحرمين الإجماع على أن السحر لايظهر إلا من فاسق ،

---

(١٠) البقرة : ١٠٢

وأن الكرامة لاتظهر على يد فاسق ، ونقل النووى فى زيادات الروضة عن المتولى نحو ذلك .

وينبغى أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه ، فإن كان متمسكا بالشريعة متجنبا للموبقات ، فالذى يظهر على يده من الخوارق كرامة ، وإلا فهو سحر ، لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين .

وقال القرطبى : السحر حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب ، غير أنها لدقتها لايتوصل إليها إلا آحاد الناس . ومادته الوقوف على خواص الأشياء والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته ، وأكثرها تخييلات بغير حقيقة ، وإيهامات بغير ثبوت ، فيعظم عند من لايعرف ذلك كما قال الله ـــ تعالى ـــ عن سحرة فرعون : ﴿ **وَجَآءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ** ﴾[11] ، مع أن حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالا وعصياً .

ثم قال : والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيرا فى القلوب ، كالحب والبغض وإلقاء الخير والشر ، وفى الأبدان بالألم والسقم ، وإنما المنكور أن الجماد ينقلب حيوانا أو عكسه بسحر الساحر ونحو ذلك .

وفى قول الله ـــ تعالى ـــ : ﴿ **وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ** ﴾[12] الآية .. بيان أصل السحر الذى يعمل به

---

(١١) الأعراف : ١١٦ .

(١٢) البقرة : ١٠٢ .

اليهود ، ثم هو مما وضعته الشياطين على سليمان بن داود ـــ عليه السلام ـــ ومما أنزل على هاروت وماروت بأرض بابل ، والثانى متقدم العهد على الأول ، لأن قصة هاروت وماروت كانت من قبل زمن نوح ـــ عليه السلام ـــ على ماذكر ابن إسحاق وغيره .

تـــاريخ الســـحر

وكان السحر موجودا فى زمن نوح ، إذ أخبر الله عن قوم نوح أنهم زعموا أنه ساحر ، وكان السحر أيضا فاشيا فى قوم فرعون ، وكل ذلك قبل سليمان .

واختلف فى المراد بالآية ، فقيل : إن سليمان كان قد جمع كتب السحر والكهانة ، فدفنها تحت كرسيه ، فلم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى ، فلما مات سليمان ، وذهبت العلماء الذين يعرفون الأمر جاءهم شيطان فى صورة إنسان ، فقال لليهود : هل أدلكم على كنز لانظير له ؟ قالوا : نعم . قال : فاحفروا تحت الكرسى ، فحفروا وهو متنح عنهم ، فوجدوا تلك الكتب ، فقال لهم : إن سليمان كان يضبط الإنس والجن بهذا ، ففشافيهم أن سليمان كان ساحرا ، فلما نزل القرآن يذكر سليمان فى الأنبياء أنكرت اليهود ذلك ، وقالوا : إنما كان ساحرا ، فنزلت هذه الآية .. أخرجه الطبرى وغيره عن السدى . ومن طريق سعيد بن جبير بسند صحيح نحوه ، ومن طريق عمران بن الحارث عن ابن عباس موصولا بمعناه .

وأخرج من طريق الربيع بن أنس نحوه ، ولكن قال : إن الشياطين هى التى كتبت كتب السحر ، ودفنتها تحت كرسيه . ثم لما مات

سليمان استخرجته وقالوا : هذا العلم الذى كان سليمان يكتمه الناس ، وأخرجه من طريق محمد بن إسحاق وزاد : إنهم نقشوا خاتما على نقش خاتم سليمان ، وختموا به الكتاب ، وكتبوا عنوانه : « هذا ماكتب آصف بن برخياء الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم » ثم دفنوه ، فذكر نحو ماتقدم ، وأخرج من طريق العوفى عن ابن عباس نحو ماتقدم عن السدى ، ولكن قال : إنهم لما وجدوا الكتب قالوا : هذا مما أنزل الله على سليمان فأخفاه منا .

وأخرج بسند صحيح عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : انطلقت الشياطين فى الأيام التى ابتلى فيها سليمان ، فكتبت كتبا فيها سحر وكفر ، ثم دفنتها تحت كرسيه ، ثم أخرجوها بعده فقرأوها على الناس .

تفسـير الآيـة

وملخص ماذكر فى تفسير هذه الآية أن المحكى عنهم أنهم اتبعوا ماتتلو الشياطين : هم أهل الكتاب ؛ إذ تقدم قبل ذلك فى الآيات إيضاح ذلك ، والجملة معطوفة على مجموع الجمل السابقة ، من قوله ــ تعالى ــ: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُول ﴾[١٣] إلى آخر الآية .. و « ما » فى قوله : ﴿ مَاتَتْلُو الشَّيَاطِينُ ﴾ موصولة على الصواب ، وغلط من قال : إنها نافية ، لأن نظم الكلام يأباه . و ﴿ تتلو ﴾ لفظه مضارع ، لكن هو واقع موقع الماضى ، وهو استعمال شائع ، ومعنى (تتلو) : تتقول ، ولذلك عداه بـ « على » . وقيل : معناه :

---

(١٣) البقرة : ١٠١ .

تتبع أو تقرأ ، ويحتاج إلى تقدير . قيل : هو تقرأ على زمان ملك سليمان .

وقوله : ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ : « ما » نافية ، جزما . وقوله : ﴿ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا ﴾ هذه الواو عاطفة لجملة الاستدراك على ماقبلها . وقوله : ﴿ يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ ﴾ الناس : مفعول أول ، والسحر مفعول ثان . والجملة حال من فاعل « كفروا » ، أى : كفروا معلمين . وقيل : هى بدل من « كفروا » . وقيل : هى استئنافية ، وهذا على إعادة ضمير « يعلمون » على « الشياطين » ، ويحتمل عوده على الذين « اتبعوا » فيكون حالا من فاعل « اتبعوا » أو استئنافا . وقوله : ﴿ وَمَا أُنزِلَ ﴾ : « ما » موصولة ، ومحلها النصب عطفا على السحر ، والتقدير : يعلمون الناس السحر والمنزل على الملكين . وقيل : الجر ، عطفا على « ملك سليمان » ، أى : تقولا على ملك سليمان وعلى ماأنزل . وقيل : بل هى نافية ، عطفا على ﴿ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ ﴾ . والمعنى : ولم ينزل على الملكين إباحة السحر . وهذان الإعرابان ينبيان على ماجاء فى تفسير الآية عن البعض ، والجمهور على خلافه ، وأنها موصولة ، ورد الزجاج على الأخفش دعواه أنها نافية ، وقال : الذى جاء فى الحديث والتفسير أولى .

وقوله : ﴿ بِبَابِلَ ﴾ : متعلق بـ « مَآ أُنزِلَ » أى : فى بابل ، والجمهور على فتح لام « الملكين » وقرىء بكسرها . و ﴿ هَارُوتَ وَمَارُوتَ ﴾ : بدل من الملكين وجرا بالفتحة ، أو عطف بيان . وقيل : بل هما بدل من « الناس » وهو بعيد . وقيل من « الشياطِين » ، على أن « هَارُوتَ وَمَارُوتَ » اسمان

لقبيلتين من الجن ، وهو ضعيف .

وقولـه : ﴿ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ ﴾ : بالتشديد ، من التعليم ، وقرىء فى الشاذ بسكون العين ، من الإعلام ، بناء على أن التضعيف يتعاقب مع الهمزة ، وذلك أن الملكين لايعلمان السحر ، بل يعلمانهم وينهيانهم عنه . والأول أشهر .

وقد قال على : الملكان يعلمان تعليم إنذار لاتعليم طلب ، وقد استدل بهذه الآية على أن السحر كفر ، ومتعلمه كافر . وهو واضح فى بعض أنواعه التى قدمتها ، وهو التعبد للشياطين أو للكواكب . وأما النوع الآخر الذى هو من باب الشعوذة ، فلا يكفر به من تعلمه أصلا .

قال النووى : عمل السحر حرام ، وهو من الكبائر بالإجماع . وقد عده النبى — ﷺ — من السبع الموبقات . ومنه مايكون كفراً ، ومنه مالايكون كفرا ، بل معصية كبيرة ، فإن كان فيه قول أو فعل يقتضى الكفر فهو كفر ، وإلا فلا . وأما تعلمه وتعليمه فحرام ، فإن كان فيه مايقتضى الكفر كفر واستتيب منه ولايقتل ، فإن تاب قبلت توبته ، وإن لم يكن فيه مايقتضى الكفر عزر ، وعن مالك : الساحر كافر يقتل بالسحر ولايستتاب ، بل يتحتم قتله كالزنديق . قال عياض : وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين . أ . هـ .

وفى المسألة اختلاف كثير وتفاصيل ليس هذا موضع بسطها ، وقد أجاز بعض العلماء تعلم السحر لأحد أمرين : إما لتمييز مافيه من غيره ، وإما لإزالته عمن وقع فيه .

فأما الأول : فلا محذور فيه إلا من جهة الاعتقاد ، فإذا سلم الاعتقاد فمعرفة الشيء بمجرده لاتستلزم منعا ، كمن يعرف كيفية عبادة أهل الأوثان للأوثان ، لأن كيفية مايعمله الساحر إنما هى حكاية قول أو فعل ، بخلاف تعاطيه والعمل به .

وأما الثانى : فإن كان لايتم كما زعم بعضهم إلا بنوع من أنواع الكفر أو الفسق ، فلا يحل أصلا ، وإلا جاز للمعنى المذكور ، وهذا فصل الخطاب فى هذه المسألة .

وقصة هاروت وماروت جاءت بسند حسن من حديث ابن عمر فى « مسند » أحمد . وأطنب الطبرى فى إيراد طرقها ، بحيث يقضى بمجموعها على أن للقصة أصلا ، خلافا لمن زعم بطلانها كعياض ومن تبعه .

ومحصلها : أن الله ركب الشهوة فى ملكين من الملائكة اختبارا لهما ، وأمرهما أن يحكما فى الأرض فنزلا على صورة البشر ، وحكما بالعدل مدة ، ثم افتتنا بامرأة جميلة فعوقبا بسبب ذلك ، بأن حبسا فى بئر ببابل ، منكسين ، وابتليا بالنطق بعلم السحر ، فصار يقصدهما من يطلب ذلك ، فلا ينطقان بحضرة أحد حتى يحذراه وينهياه ، فإذا أصر تكلما بذلك ، ليتعلم منهما ذلك ، وهما قد عرفا ذلك ، فيتعلم منهما ماقص الله عنهما .. والله أعلم .

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾[١٤] . فى الآية

---

(١٤) طه : ٦٩ .

نفى الفلاح عن الساحر . وليست فيه دلالة على كفر الساحر مطلقاً ، وإن كثر فى القرآن إثبات الفلاح للمؤمن ونفيه عن الكافر ، لكن ليس فيه ما ينفى نفى الفلاح عن الفاسق، وكذا العاصى .

وقوله : ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾[١٥] . هذه الآية عمدة من زعم أن السحر إنما هو تخييل ، ولا حجة له به ؛ لأن هذه وردت فى قصة سحرة فرعون ، وكان سحرهم كذلك ، ولايلزم منه أن جميع أنواع السحر تخييل .

قال أبو بكر الرازى فى « الأحكام » : أخبر الله ـــ تعالى ـــ أن الذى ظنه موسى من أنها تسعى لم يكن سعيا ، وإنما كان تخييلا ، وذلك أن عصيهم كانت مجوفة قد ملئت زئبقا ، وكذلك الحبال كانت من أدم محشوة زئبقا ، وقد حفروا قبل ذلك أسرابا ، وجعلوا لها آزاجا ، وملأوها نارا ، فلما طرحت على ذلك الموضع وحمى الزئبق حركها ، لأن من شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فلما أثقلته كثافة الحبال والعصى صارت تتحرك بحركته ، فظن من رآها أنها تسعى ، ولم تكن تسعى حقيقة .

هل سحر النبى ﷺ ؟

بيَّن الواقدى السنة التى وقع فيها السحر ، أخرجه عنه ابن سعد بسند له إلى عمر بن الحكم مرسل ، قال : « لما رجع رسول الله ـــ

---

(١٥) طه : ٦٦ .

ﷺ ــ من الحديبية فى ذى الحجة ودخل المحرم من سنة سبع ، جاءت اليهود إلى لبيد بن الأعصم ، وكان حليفا فى بنى زريق ، وكان ساحراً ، فقالوا له : يا أبا الأعصم ، أنت أسحرنا ، وقد سحرنا محمدا فلم نصنع له شيئا ، ونحن نجعل لك جعلا على أن تسحره لنا سحرا ينكؤه ، فجعلوا له ثلاثة دنانير » .

ووقع فى رواية أبى ضمرة عند الإسماعيلى : (فأقام أربعين ليلة) وفى رواية وهيب عن هشام عند أحمد (ستة أشهر) ، ويمكن الجمع بأن تكون الستة أشهر من ابتداء تغير مزاجه ، والأربعون يوما من استحكامه . وقال السهيلى : لم أقف فى شىء من الأحاديث المشهورة على قدر المدة التى مكث النبى ــ ﷺ ــ فيها فى السحر ، حتى ظفرت به فى « جامع معمر » عن الزهرى أنه لبث ستة أشهر ، كذا قال : وقد وجدناه موصولا بإسناد صحيح ، فهو المعتمد .

قال المازرى : أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث ، وزعموا أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها ، قالوا : وكل الذى أدى إلى ذلك فهو باطل . وزعموا أن تجويز هذا يعدم الثقة بما شرعوه من الشرائع ؛ إذ يحتمل على هذا أن يخيل إليه أنه يرى جبريل ، وليس هو ثم ، وأنه يوحى إليه بشىء ولم يوح إليه بشىء .

قال المازرى : وهذا كله مردود ؛ لأن الدليل قد قام على صدق النبى محمد ــ ﷺ ــ فيما يبلغه عن الله ــ تعالى ــ وعلى عصمته فى التبليغ ، والمعجزات شاهدة بتصديقه ، فتجويز ماقام الدليل على خلافه باطل ، وأما مايتعلق ببعض أمور الدنيا التى لم يبعث لأجلها ، ولا كانت الرسالة من أجلها ، فهو فى ذلك عرضة لما يعترض البشر

كالأمراض ، فغير بعيد أن يخيل إليه فى أمر من أمور الدنيا مالا حقيقة له ، مع عصمته عن مثل ذلك فى أمور الدين .

قال : وقد قال بعض الناس : إن المراد بالحديث ، أنه كان — ﷺ — يخيل إليه أنه وطىء زوجاته ولم يكن وطأهن ، وهذا كثيرا مايقع تخيله للإنسان فى المنام ، فلا يبعد أن يخيل إليه فى اليقظة ، قلت : وهذا قد ورد صريحا فى رواية ابن عيينة ، ولفظه : (حتى كان يرى أنه يأتى النساء ولا يأتيهن) وفى رواية الحميدى : (أنه كان يأتى أهله ولا يأتيهن) .

قال الداودى : (يرى) بضم أوله — أى : يظن ، وقال ابن التين : ضبطت (يرى) بفتح أوله . قلت : وهو من الرأى لا من الرؤية ، فيرجع إلى معنى « الظن » . وفى مرسل يحيى بن يعمر عند عبد الرزاق : (سحر النبى — ﷺ — عن عائشة حتى أنكر بصره) . وعنده فى مرسل سعيد بن المسيب : (حتى كاد ينكر بصره) .

قال عياض : فظهر بهذا أن السحر إنما تسلط على جسده وظواهر جوارحه ، لا على تمييزه ومعتقده ، قلت : ووقع فى مرسل عبد الرحمن بن كعب عند ابن سعد : (فقالت أخت لبيد بن الأعصم) : إن يكن نبيا فسيخبر ، وإلا فسيذهله هذا السحر حتى يذهب عقله) قلت : فوقع الشق الأول ، كما فى هذا الحديث الصحيح .

وقد قال بعض العلماء : لايلزم من أنه كان يظن فعل الشىء ولم يكن فعله ، أن يجزم بفعله ذلك ، وإنما يكون ذلك من جنس الخاطر يخطر ولايثبت ، فلا يبقى على هذا للملحد حجة .

وقال عياض : يحتمل أن يكون المراد بالتخييل المذكور أنه يظهر له من نشاطه ماألفه من سابق عادته من الاقتدار على الوطء ، فإذا دنا من المرأة فتر عن ذلك كما هو شأن المعقود ، ويكون قوله فى الرواية الأخرى : (حَتَّى كَادَ يُنكِرُ بَصَرَهُ) أى : صار كالذى أنكر بصره ، بحيث إنه إذا رأى الشيء يخيل أنه على غير صفته ، فإذا تأمله عرف حقيقته ، ويؤيد جميع ماتقدم أنه لم ينقل عنه فى خبر من الأخبار أنه قال قولا فكان بخلاف ماأخبر به .

وقال المهلب : صون النبى ــ ﷺ ــ من الشياطين لايمنع إرادتهم كيده ، فقد مضى فى الصحيح أن شيطانا أراد أن يفسد عليه صلاته ، فأمكنه الله منه ، فكذلك السحر ، ماناله من ضرره مايدخل نقصا على مايتعلق بالتبليغ ، بل هو من جنس ماكان يناله من ضرر سائر الأمراض من ضعف عن الكلام ، أو عجز عن بعض الفعل ، أو حدوث تخيل لايستمر ، بل يزول ، ويبطل الله كيد الشياطين .

واستدل ابن القصار على أن الذى أصابه كان من جنس المرض ، بقوله فى آخر الحديث : « أما أنا فقد شفانى الله » . وفى الاستدلال بذلك نظر ، لكن يؤيد المدعى أن رواية عمرة عن عائشة عند البيهقى فى « الدلائل » : (فكان يدور ولا يدرى ماوجعه) ، وفى حديث ابن عباس عند ابن سعد : (مرض النبى ــ ﷺ وأخذ عن النساء والطعام والشراب ، فهبط عليه ملكان) ... الحديث ...

قال الحافظ ــ رحمه الله ــ : سلك النبى ــ ﷺ ــ فى هذه القصة مَسْلَكيْنِ: التفويض ، وتعاطى الأسباب ، ففى أول الأمر فوض وسلم الأمر لربه ، فاحتسب الأجر فى صبره على بلائه ، ثم لما تمادى ذلك وخشى من تماديه أن يضعفه عن فنون عبادته جنح إلى

التداوى ، ثم إلى الدعاء ، وكل من المقامين غاية فى الكمال .
(١٠/٢٢١ - ٢٢٨)

التـداوى من السـحر

ترجم البخارى لذلك بباب : هل يستخرج السحر ؟ وقال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : رجل به طب ، أو يؤخذ عن امرأته ، أيحل عنه أو ينشر ؟ قال : لا بأس به ، إنما يريدون به الإصلاح ، فأما ماينفع فلم ينه عنه .

وأورد حديث سحر النبى ـ ﷺ ـ عن عائشة ، وفيه من الزيادة : قالت : فأتى النبى ـ ﷺ ـ البئر حتى استخرجه ، فقال : هذه البئر التى أريتها ، وكأن ماءها نقاعة الحناء ، وكأن نخلها رءوس الشياطين ، قال : فاستخرج . قالت : فقلت : أفلا ؟ ـ أى : تنشرت ـ؟ فقال : أما والله فقد شفانى ، وأكره أن أثير على أحد من الناس شرا .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: النشرة ـ بالضم ـ: ضرب من العلاج يعالج به من يظن أن به سحراً أو مسا من الجن . قيل لها ذلك ؛ لأنه يكشف بها عنه ماخالطه من الداء ، وقد أخرج عبد الرزاق من طريق الشعبى قال : لابأس بالنشرة العربية التى إذا وطئت لاتضره ، وهى أن يخرج الإنسان فى موضع عضاه ، فيأخذ عن يمينه وعن شماله من كل ، ثم يدقه ويقرأ فيه ثم يغتسل به .

وذكر ابن بطال أن فى كتب وهب بن منبه : أن يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر ، فيدقه بين حجرين ، ثم يضربه بالماء ، ويقرأ فيه آية الكرسى والقواقل ، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ، ثم يغتسل

به ، فإنه يذهب عنه كل مابه ، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله ، وممن صرح بجواز النشرة المزنى صاحب الشافعى وأبو جعفر الطبرى وغيرهما .

ثم وقفت على صفة النشرة فى كتاب « الطب النبوى » لجعفر المستغفرى ، قال : وجدت فى خط نصوح بن واصل ، على ظهر جزء من « تفسير قتيبة بن أحمد البخارى » قال : قال قتادة لسعيد بن المسيب : رجل به طب أخذ عن امرأته ، أيحل له أو ينشر ؟ قال : لابأس إنما يراد به الإصلاح ، فأما ماينفع فلم ينه عنه . قال نصوح : فسألنى حماد بن شاكر : ماالحل وما النشرة ؟ فلم أعرفهما ، فقال : هو الرجل إذا لم يقدر على مجامعة أهله وأطاق ماسواها ، فإن المبتلى بذلك يأخذ حزمة قضبان وفأساً ذا قطارين ، ويضعه فى وسط تلك الحزمة ، ثم يؤجج ناراً فى تلك الحزمة ، حتى إذا حمى الفأس استخرجه من النار ، وبال على حره ، فإنه يبرأ بإذن الله تعالى .

وأما النشرة ، فإنه يجمع أيام الربيع ماقدر عليه من ورد المغارة وورد البساتين ، ثم يلقيها فى إناء نظيف ، ويجعل فيهما ماء عذبا ثم يغلى ذلك الورد فى الماء غليا يسيرا ثم يمهل حتى إذا فتر الماء أفاضه عليه ، فإنه يبرأ بإذن الله ـــ تعالى ـــ قال حاشد : تعلمت هاتين الفائدتين بالشام .

قلت : وحاشد هذا ، من رواة الصحيح عن البخارى ، وقد أغفل المستغفرى أن أثر قتادة هذا علقه البخارى فى صحيحه ، وأنه وصله الطبرى فى تفسيره ، ولو اطلع على ذلك مااكتفى بعزوه إلى « تفسير قتيبة بن أحمد » بغير إسناد ، وأغفل أيضا أثر الشعبى فى صفته ، وهو أعلى مااتصل بنا من ذلك .

قال ابن القيم : من أنفع الأدوية وأقوى مايوجد من النشرة مقاومة السحر الذى هو من تأثيرات الأرواح الخبيثة بالأدوية الإلهية من الذكر والدعاء والقراءة ، فالقلب إذا كان ممتلئا من الله معمورا بذكره ، وله ورد من الذكر والدعاء والتوجه لايخل به كان ذلك من أعظم الأسباب المانعة من إصابة السحر له .

قال : وسلطان تأثير السحر هو فى القلوب الضعيفة ، ولهذا غالب مايؤثر فى النساء والصبيان والجهال ، لأن الأرواح الخبيثة إنما تنشط على أرواح تلقاها مستعدة لما يناسبها . انتهى ملخصا . ويعكر عليه حديث الباب وجواز السحر على النبى — ﷺ — مع عظيم مقامه وصدق توجهه وملازمة ورده ، ولكن يمكن الجواب عن ذلك بأن ذكره محمول على الغالب ، وأن ماوقع به — ﷺ — لبيان تجويز ذلك .. والله أعلم . (١٠/٢٣٢ - ٢٣٥)

هل يقتـل السـاحر ؟

قال الحافظ — رحمه الله —: واستدل بحديث سحر النبى — ﷺ — على أن الساحر لا يقتل حداً إذا كان له عهد ، وأما ماأخرجه الترمذى من حديث جندب رفعه ، قال : « حد الساحر ضربه بالسيف » ففى سنده ضعف ، فلو ثبت لخص منه من له عهد ، وأخرج البخارى من رواية بجالة : (أن عمر كتب إليهم : أن اقتلوا كل ساحر وساحرة) وزاد عبد الرزاق عن ابن جريج عن عمرو بن دينار فى روايته عن بجالة : (فقتلنا ثلاث سواحر) . أخرج البخارى أصل الحديث دون قصة قتل السواحر .

قال ابن بطال : لايقتل ساحر أهل الكتاب عند مالك والزهرى إلا أن يقتل بسحره فيقتل ، وهو قول أبى حنيفة والشافعى . وعن

مالك : إن أدخل بسحره ضررا على مسلم ، لم يعاهد عليه نقض العهد بذلك ، فيحل قتله . وإنما لم يقتل النبى ـ ﷺ ـ لبيد بن الأعصم ، لأنه كان لاينتقم لنفسه ، ولأنه خشى إذا قتله أن تثور بذلك فتنة بين المسلمين وبين حلفائه من الأنصار ، وهو نمط ماراعاه من عدم قتل المنافقين، سواء كان لبيد يهودياً أو منافقاً حسب ماوردت الروايات من الاختلاف فيه .

قال : وعند مالك أن حكم الساحر حكم الزنديق ، فلا تقبل توبته ، ويقتل حدا إذا ثبت عليه ذلك وبه قال أحمد ، وقال الشافعى : لايقتل إلا إن اعترف أنه قتل بسحره فيقتل به . فإن اعترف أن سحره قد يقتل وقد لايقتل ، وأنه سحره وأنه مات ، لم يجب عليه القصاص ، ووجبت الدية فى ماله لا على عاقلته ، ولا يتصور القتل بالسحر بالبينة .

وادعى أبو بكر الرازى فى « الأحكام » أن الشافعى تفرد به بقوله : إن الساحر يقتل قصاصا إذا اعترف أنه قتله بسحره . والله أعلم .

قال النووى : إن كان فى السحر قول أو فعل يقتضى الكفر كفر الساحر ، وتقبل توبته إذا تاب عندنا ، وإذا لم يكن فى سحره مايقتضى الكفر عزر واستتيب . (١٠ / ٢٣٦) .

انتهى الحديث عن السحر ، ولأن الكهانة ضرب من ادعاء الغيب الذى هو قريب من السحر فى بابه ومعناه ، قفينا بالكلام عنها ، بصفتها قرينا للسحر قليلا مايفترقان فى الحديث عنهما .

أخرج البخارى ـــ رحمه الله ـــ عن أبى هريرة أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قضى فى امرأتين من هذيل اقتتلتا ، فرمت إحداهما الأخرى بحجر ، فأصاب بطنها وهى حامل ، فقتلت ولدها الذى فى بطنها ، فاختصموا إلى النبى ـــ ﷺ ـــ فقضى : أن دية مافى بطنها غرة عبد أو أمة ، فقال ولى المرأة التى غرمت : كيف أغرم يارسول الله من لا شرب ولاأكل ، ولا نطق ولا استهل ، فمثل ذلك يطل ؟ فقال النبى ـــ ﷺ ـــ :« **إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخوَانِ الْكُهَّانِ** » .

وأخرج عن أبى مسعود قال : نهى رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن ثمن الكلب ، ومهر البغى ، وحلوان الكاهن .

وأخرج عن عائشة ـــ رضى الله عنها ـــ قالت : سأل ناس رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن الكهان فقال : « **لَيْسَ بِشَىْءٍ** » فقالوا : إنهم يحدثوننا أحيانا بشىء فيكون حقا . فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ : « **تِلْكَ الْكَلِمَةُ مِنَ الْحَقِّ يَخْطِفُهَا الْجِنِّىُّ فَيَقُرُّهَا فِى أُذُنِ وَلِيِّهِ ، فَيَخْلِطُونَ مَعَهَا مِائَةَ كَذِبةٍ** » .

من هو الكاهن ... وما هى الكهانة ؟

قال الحافظ ـــ رحمه الله ـــ الكهانة ـــ بفتح الكاف ويجوز كسرها ـــ: ادعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع فى الأرض مع الاستناد إلى سبب ، والأصل فيه استراق الجنى السمع من كلام الملائكة ، فيلقيه فى أذن الكاهن .

والكاهن لفظ يطلق على العراف والذى يضرب بالحصى والمنجم ، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ويسعى فى قضاء حوائجه .. وقال فى « المحكم » : الكاهن : القاضى بالغيب ، وقال فى « الجامع » : العرب تسمى كل من أذِنَ بشيء قبل وقوعه كاهنا .

وقال الخطابى : الكهنة : قوم لهم أذهان حادة ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ، ومساعدتهم بكل ماتصل قدرتهم إليه ، وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية خصوصا فى العرب ؛ لانقطاع النبوة فيهم .. وهى على أصناف :

★ منها مايتلقونه من الجن فإن الجن كانوا يصعدون إلى جهة السماء ، فيركب بعضهم بعضا ، إلى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام ، فيلقيه إلى الذى يليه ، إلى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن ، فيزيد فيه ، فلما جاء الإسلام ونزل القرآن ، حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب ، فبقى من استراقهم مايتخطفه الأعلى فيلقيه إلى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، وإلى ذلك الإشارة بقوله ــ تعالى ــ: ﴿ **إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ** ﴾[1] .

وكانت إصابة الكهان قبل الإسلام كثيرة جدا ، كما جاء فى أخبار « شق » « وسطيح » ونحوهما ، وأما فى الإسلام ، فقد ندر ذلك جدا ، حتى كاد يضمحل ، ولله الحمد .

---

(١) الصافات : ١٠

★ ثانيها : مايخبر الجنى به من يواليه بما غاب عن غيره مما لايطلع عليه الإنسان غالبا ، أو يطلع عليه من قرب لامن بعد .

★ ثالثها : مايستند إلى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه .

★ رابعها : مايستند إلى التجربة والعادة ، فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ، ومن هذا القسم الأخير مايضاهى السحر ، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم ، وكل ذلك مذموم شرعا .

ذم الكهانة والوعيد عليها

ورد فى ذم الكهانة ما أخرجه أصحاب السنن وصححه الحاكم من حديث أبى هريرة رفعه : « مَنْ أَتَى كَاهِناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمد » وله شاهد من حديث جابر وعمران ابن حصين ، أخرجهما البزار بسندين جيدين ، ولفظهما : « مَنْ أتى كاهناً » . وأخرجه مسلم من حديث امرأة من أزواج النبى — ﷺ ، ومن الرواة من سماها : حفصة — بلفظ : « من أتى عرافا » وأخرجه أبو يعلى من حديث ابن مسعود بسند جيد ، لكن لم يصرح برفعه ، ومثله لايقال بالرأى ، ولفظه : « من أتى عرافاً أو ساحراً أو كاهنا » . واتفقت ألفاظهم على الوعيد بلفظ حديث أبى هريرة ، إلا حديث مسلم فقال فيه : « لم يقبل لهما صلاة أربعين يوما » .

ووقع عند الطبرانى فى حديث أنس بسند ليِّن مرفوعا ، بلفظ : « من أتى كاهناً فصدقه بما يقول فقد برىء بما أنزل على محمد ، ومن أتاه غير مصدق له ، لم تقبل صلاته أربعين يوماً » .. والأحاديث

الأول مع صحتها وكثرتها أولى من هذا .

والوعيد جاء تارة بعدم قبول الصلاة ، وتارة بالتكفير ، فيحمل على حالين من الآتى ، أشار إلى ذلك القرطبى .

والعراف ـ بفتح المهملة وتشديد الراء ـ : من يدَّعى الوقوف على المغيبات بضرب من فعل أو قول .

تفسـير الحديث

قوله : « يطل »(٢) - بضم المثناة التحتانية ، وفتح الطاء المهملة ، وتشديد اللام - أى : يهدر . يقال : دم فلان هدر : إذا ترك الطلب بثأره . وطل الدم - بضم الطاء وبفتحها أيضا - وحكى « أطل » ولم يعرفه الأصمعى ، ووقع فى رواية ابن مسافر : « بطل » - بفتح الموحدة والتخفيف - من البطلان ، كذا رأيته فى نسخة معتمدة من رواية أبى ذر ، وزعم عياض أنه وقع هنا للجميع بالموحدة . قال : وبالوجهين فى الموطأ . وقد رجح الخطابى أنه من البطلان . وأنكره ابن بطال فقال : كذا يقول أهل الحديث ، وإنما هو : طل الدم ، إذا هدر . قلت : وليس لإنكاره معنى بعد ثبوت الرواية ، وهو موجه راجع إلى معنى الرواية الأولى .

قوله : « إنما هو من إخوان الكهان » ، أى : لمشابهة كلامه كلامهم ، زاد مسلم والإسماعيلى من رواية يونس : « من أجل سجعه الذى سجع » . قال القرطبى : هو من تفسير الراوى . وقد ورد

---

(٢) هذه عودة إلى أول الباب لتفسير معانى كلمات الحديث الوارد هناك ص ٣١ .

مستند ذلك فيما أخرجه مسلم فى حديث المغيرة بن شعبة : فقال رجل من عصبة القاتلة : يغرم – فذكر نحوه . وفيه : – فقال رسول الله – ﷺ –: « **أسجع كسجع الأعراب** » ؟ .

والسجع : هو تناسب آخر الكلمات لفظاً . وأصله الاستواء . وفى الاصطلاح : الكلام المقفى ، والجمع أسجاع وأساجيع . قال ابن بطال : فيه ذم الكهان ، وذم من تشبه بهم فى ألفاظهم ، وإنما لم يعاقبه لأنه – ﷺ – كان مأموراً بالصفح عن الجاهلين .

وقد تمسك به من كره السجع فى الكلام ، وليس على إطلاقه ، بل المكروه منه مايقع مع التكلف فى معرض مدافعة الحق ، وأما مايقع عفوا بلا تكلف فى الأمور المباحة فجائز ، وعلى هذا يحمل ماورد عنه – ﷺ – .

والحاصل أنه إن جمع الأمرين من التكلف وإبطال الحق كان مذموماً ، وإن اقتصر على أحدهما كان أخف فى الذم ، ويخرج من ذلك تقسيمه إلى أربعة أنواع : فالمحمود : ماجاء عفوا فى حق ، ودونه مايقع متكلفا فى حق أيضاً ، والمذموم عكسهما .

قوله : « فيقرها » – بفتح أوله وثانيه وتشديد الراء – أى : يصبها ، تقول : قررت على رأسه دلوا : إذا صببته . فكأنه صب فى أذنه ذلك الكلام ، قال القرطبى : ويصح أن يقال : المعنى : ألقاها فى أذنه بصوت ، يقال : قر الطائر : إذا صوت . انتهى .

ووقع فى رواية يونس (التى عند مسلم) « فيقرقرها » أى : يرددها . يقال قرقرت الدجاجة تقرقر قرقرة . إذا رددت صوتها . قال الخطابى : ويقال أيضا : قرت الدجاجة تقر قرا وقريرا . وإذا

رجعت فى صوتها قيل : قرقرت قرقرة وقرقريرة . قال : والمعنى : أن الجنى إذا ألقى الكلمة لوليه تسامع بها الشياطين فتناقلوها . كما إذا صوتت الدجاجة فسمعها الدجاج فجاوبتها .

وتعقبه القرطبى بأن الأشبه بمساق الحديث أن الجنى يلقى الكلمة إلى وليه بصوت خفى متراجع له زمزمة ويرجعه له ، فلذلك يقع كلام الكهان غالبا على هذا النمط .

وأطلق على الكاهن « ولى الجنى » لكونه يواليه ، أو عدل عن قوله : « الكاهن » إلى قوله : « وليه » للتعميم فى الكاهن وغيره ممن يوالى الجن .

قال الخطابى : بين — ﷺ — أن إصابة الكاهن أحياناً ، إنما هى لأن الجنى يلقى إليه الكلمة التى يسمعها استراقا من الملائكة ، فيزيد عليها أكاذيب يقيسها على ماسمع ، فربما أصاب نادراً ، وخطؤه الغالب .

وقد أخرج مسلم فى حديث آخر أصل توصل الجنى إلى الاختطاف ، فأخرج من حديث ابن عباس : حدثنى رجال من الأنصار ، أنهم بينما هم جلوس ليلا مع رسول الله — ﷺ — إذ رمى بنجم فاستنار ، فقال : « مَاكُنْتُمْ تَقُولُونَ إِذَا رُمِىَ مِثْلُ هَذَا فِى الْجَاهِلِيَّةِ ؟ » قالوا: كنا نقول : ولد الليلة رجل عظيم ، أو مات رجل عظيم . فقال : « **لَايُرْمَى بِهَا لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلَا لِحَيَاتِه ، وَلِكَنْ رَبُّنَا إِذَا قَضَى أَمْراً سَبَّحَ حَمَلَةُ الْعَرْشِ ، ثُمَّ سَبَّحَ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ، حَتَّى يَبْلُغَ التَّسْبِيحُ إِلَى أَهْلِ هَذِهِ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، فَيَقُولُونَ : مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ ، حَتَّى يَصِلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنيا ، فَيَسْتَرِقَ مِنْهُ الْجِنِّىُّ .**

فَمَا جَاءُوا بِهِ عَلَى وَجْهِهِ فَهُوَ حَقٌّ .. وَلَكِنَّهُمْ يزِيدُونَ فِيهِ وَيَنْقُصُونَ » .

وفى النهى عن إتيان الكهان قال القرطبى : يجب على من يقدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئا من ذلك فى الأسواق ، وينكر عليهم أشد النكير ، وعلى من يجيء إليهم ، ولا يغتر بصدقهم فى بعض الأمور ، ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينسب إلى العلم ، فإنهم غير راسخين فى العلم ، بل من الجهال ، بما فى إتيانهم من المحظور (١٠/٢١٦ — ٢٢١) .

أشـياء كالسحر ، وإن لم تكن سحرا

هناك أشياء أخرى ذكرتها الأحاديث النبوية الشريفة تذكر حديث النفس بما يمكن أن يجلب خيراً أو يدفع ضرا ، ولأن حديث النفس هذا قد يكون فيه مشابه مما قيل فى السحر والكهانة حسن فى رأينا أن نتلو هذا بذلك فتكتمل الفائدة بمعرفة ماقيل فى السحر وما يماثله من الطيرة والتشاؤم والاعتقاد بأن للعين تأثيراً على الأشياء .. إلخ .. نبدؤها بالحديث عن العدوى بدءاً بما بدأ النبى — ﷺ — فى الحديث المذكور عن بعض هذه الأشياء ..

أخرج البخارى ـ رحمه الله ـ عن سعيد بن ميناء قال ـ سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ـ ﷺ ـ: «**لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامةَ وَلَاصَفَر ، وَفِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ**» (١٠/١٥٨) .

قال عياض : اختلفت الآثار فى المجذوم ، فجاء عن جابر : أن النبى ــ ﷺ ــ أكل مع مجذوم ، وقال : « **ثِقَةً بِاللهِ وَتَوكُّلا عَلَيْهِ** » . قال : فذهب عمر وجماعة من السلف إلى الأكل معه ، ورأوا أن الأمر باجتنابه منسوخ ، وممن قال بذلك عيسى بن دينار من المالكية ، قال : والصحيح الذى عليه الأكثر ويتعين المصير إليه أن لانسخ ، بل يجب الجمع بين الحديثين ، وحمل الأمر باجتنابه والفرار منه على الاستحباب والاحتياط ، والأكل معه على بيان الجواز . أ.هـ

هكذا اقتصر القاضى ومن تبعه على حكاية هذين القولين ، وحكى عن غيره قولا ثالثا وهو الترجيح ، وقد سلكه فريقان :

أحدهما سلك ترجيح الأخبار الدالة على نفى العدوى ، وتزييف الأخبار الدالة على عكس ذلك ، مثل حديث الباب ، فأعلوه بالشذوذ ، وبأن عائشة أنكرت ذلك ، فأخرج الطبرى عنها : لأن امرأة سألتها ، فقالت : ماقال ذلك ، ولكنه قال : « لاعدوى » وقال : « فمن أعدى الأول ؟ » قالت : وكان لى مولى به هذا الداء ، فكان يأكل فى صحافى ويشرب فى أقداحى وينام على فراشى .. وبأن أبا هريرة تردد فى هذا الحكم ، فيؤخذ الحكم من

رواية غيره ، وبأن الأخبار الواردة من رواية غيره فى نفى العدوى كثيرة شهيرة بخلاف الأخبار المرخصة فى ذلك ، ومثل حديث : « **لَاتُدِيمُو النَّظَرَ إِلَى الْمَجْذومِينَ** » . وقد أخرجه ابن ماجه وسنده ضعيف ، ومثل حديث عبد الله بن أبى أوفى ، رفعه : « كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمحين » ، أخرجه أبو نعيم فى « الطب » بسند واه ، ومثل ماأخرجه الطبرى من حديث معمر عن الزهرى : (أن عمر قال لمعيقيب : اجلس منى قيد رمح) ، ومن طريق خارجة بن زيد : (كان عمر يقول ... نحوه) وهما أثران منقطعان .

وأما حديث الشريد الذى أخرجه مسلم فليس صريحا فى أن ذلك بسبب الجذام ، والجواب عن ذلك أن طريق الترجيح لايصار إليها إلا مع تعذر الجمع ، وهو ممكن ، فهو أولى .

الفريق الثانى : سلكوا فى الترجيح عكس هذا المسلك ، فردوا حديث : « **لَا عَدْوَى** » ، بأن أبا هريرة رجع عنه ، إما لشكه فيه ، وإما لثبوت عكسه عنده ، قالوا : والأخبار الدالة على الاجتناب أكثر مخارج وأكثر طرقا ، فالمصير إليها أولى . قالوا : وأما حديث جابر : أن النبى ــ ﷺ ــ أخذ بيد مجذوم فوضعها فى القصعة وقال : « **كُلْ ثِقَةً بِاللهِ وَتَوَكُّلًا عَلَيْهِ** » ، ففيه نظر ، وقد أخرجه الترمذى وبين الاختلاف فيه على راويه ، ورجح وقفه على عمر . وعلى تقدير ثبوته فليس فيه أنه ــ ﷺ ــ أكل معه ، وإنما فيه أنه وضع يده فى القصعة ، قاله الكلاباذى فى « معانى الأخبار » .

قال الحافظ : والجواب أن طريق الجمع أولى كما تقدم . وأيضا فحديث : « لاعدوى » ثبت من غير طريق أبى هريرة ، فصح عن عائشة وابن عمر وسعد بن أبى وقاص وجابر وغيرهم ، فلا معنى

لدعوى كونه معلولا .. والله أعلم . .

وفى طريق الجمع مسالك أخرى :

أحدها : نفى العدوى جملة ، وحمل الأمر بالفرار من المجذوم ، على رعاية خاطر المجذوم ، لأنه إذا رأى الصحيح البدن السليم من الآفة ، تعظم مصيبته وتزداد حسرته ، ونحوه حديث : « لَاتُدِيمُوا النَّظَرَ إِلَى الْمَجْذُومِينَ » فإنه محمول على هذا المعنى .

ثانيها : حمل الخطاب بالنفى والإثبات على حالتين مختلفتين . فحيث جاء : « لاعدوى » كان المخاطب بذلك ، من قوى يقينه وصح توكله ، بحيث يستطيع أن يدفع عن نفسه اعتقاد العدوى ، كما يستطيع أن يدفع التطير الذى يقع فى نفس كل أحد ، لكن القوى اليقين لايتأثر به ، وهذا مثل ماتدفع قوة الطبيعة العلة فتبطلها . وعلى هذا يحمل حديث جابر فى أكل المجذوم من القصعة ، وسائر ماورد من جنسه . وحيث جاء : « فر من المجذوم » كان المخاطب بذلك من ضعف يقينه ولم يتمكن من تمام التوكل ، فلا يكون له قوة على دفع اعتقاد العدوى ، فأريد بذلك سد باب اعتقاد العدوى عنه ، بألا يباشر مايكون سببا لإثباتها ، وقريب من هذا كراهيته ـ ﷺ ـ الكى مع إذنه فيه ، وقد فعل هو ـ ﷺ ـ كلا من الأمرين ليتأسى به كل من الطائفتين .

ثالث المسالك : قال القاضى أبو بكر الباقلانى : إثبات العدوى فى الجذام ونحوه مخصوص من عموم نفى العدوى ، قال : فيكون معنى قوله : « لاعدوى » أى : إلا من الجذام والبرص والجرب مثلا .

قال : فكأنه قال : لايعدى شىء شيئا إلا ماتقدم تبيينى له أن فيه العدوى . وقد حكى ذلك ابن بطال أيضا .

رابعها : أن الأمر بالفرار من المجذوم ليس من باب العدوى فى شيء ، بل إنه لأمر طبيعى ، وهو انتقال الداء من جسد إلى جسد بواسطة الملامسة والمخالطة وشم الرائحة ، ولذلك يقع فى كثير من الأمراض فى العادة انتقال الداء من المريض إلى السليم .. بكثرة المخالطة ، وهذه طريقة ابن قتيبة ، فقال : المجذوم تشتد رائحته حتى يسقم من أطال مجالسته ومحادثته ومضاجعته ، وكذا يقع كثيراً بالمرأة من الرجل وعكسه ، وينزع الولد إليه ، ولهذا يأمر الأطباء بترك مخالطة المجذوم لا على طريق العدوى ، بل على طريق التأثر بالرائحة ، لأنها تسقم من واظب اشتمامها ، قال : ومن ذلك قوله ﷺ « **لَايُورِدُ مُمْرِضٌ عَلَى مُصِحّ** » لأن الجرب الرطب قد يكون بالبعير ، فإذا خالط الإبل أو حككها وأوى إلى مباركها ، وصل إليها بالماء الذى يسيل منه ، وكذا بالنظر نحو مابه .

قال : وأما قوله : « لاعدوى » فله معنى آخر ، وهو أن يقع المرض بمكان كالطاعون ، فيفر منه مخافة أن يصيبه ، لأن فيه نوعا من الفرار من قدر الله .

المسلك الخامس : أن المراد بنفى العدوى ، أن شيئا لا يعدى بطبعه ، نفيا لما كانت الجاهلية تعتقده أن الأمراض تعدى بطبعها من غير إضافة إلى الله ، فأبطل النبى ـ ﷺ ـ اعتقادهم ذلك ، وأكل مع المجذوم ، ليبين لهم أن الله هو الذى يمرض ويشفى ، ونهاهم عن الدنو منه ، ليبين لهم أن هذا من الأسباب التى أجرى الله العادة بأنها تفضى إلى مسبباتها ، ففى نهيه إثبات الأسباب ، وفى فعله إشارة إلى أنها لاتستقل ، بل الله هو الذى إن شاء سلبها قواها فلا تؤثر شيئا ، وإن شاء أبقاها فأثَّرتْ .

ويحتمل أيضا أن أكله ﷺ مع المجذوم ، أنه كان به أمر يسير ، لايعدى مثله فى العادة ، إذ ليس الجذمى كلهم سواء ، ولا تحصل العدوى من جميعهم ، بل إن بعضهم لايحصل منه فى العادة عدوى أصلا ، كالذى أصابه شىء من ذلك ، ووقف فلم يعد بقية جسمه ، فلا يعدى .

وعلى الاحتمال الأول جرى أكثر الشافعية ، قال البيهقى بعد أن أورد قول الشافعى مانصه : الجذام والبرص ، يزعم أهل العلم بالطب والتجارب أنه يعدى الزوج كثيرا ، وهو داء مانع للجماع ، لاتكاد نفس أحد تطيب بمجامعة من هو به ، ولا نفس امرأة أن يجامعها من هو به ، وأما الولد فبين أنه إذا كان من وَلَدُهُ أجذمَ أو أبرصَ ، أنه قلما يسلم ، وإن سلم أدرك نسله .

قال البيهقى : وأما ماثبت عن النبى — ﷺ — أنه قال : « لاعدوى » فهو على الوجه الذى كانوا يعتقدونه فى الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى ، وقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شىء من هذه العيوب سببا لحدوث ذلك ، ولهذا قال — ﷺ — : « **فر من المجذوم فرارك من الأسد** » وقال : « **لا يورد ممرض على مصح** » وقال فى الطاعون : « **مَنْ سَمِعَ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا يَقْدَمْ عَلَيْه** » وكل ذلك بتقدير الله تعالى ، وتبعه على ذلك ابن الصلاح فى الجمع بين الحديثين ، ومن بعده ، وطائفة ممن قبله .

المسلك السادس : العمل بنفى العدوى أصلا ورأسا ، وحمل الأمر بالمجانبة على حسم المادة وسد الذريعة ، لئلا يحدث للمخالط شىء من ذلك ، فيظن أنه بسبب المخالطة ، فيثبت العدوى التى نفاها الشارع ، وإلى هذا القول ذهب أبو عبيد وتبعه جماعة ، فقال أبو

عبيد : ليس فى قوله : « لا يورد ممرض على مصح » إثبات العدوى ، بل لأن الصحاح لو مرضت بتقدير الله تعالى ربما وقع فى نفس صاحبها أن ذلك من العدوى ، فيفتن ويتشكك فى ذلك ، فأمر باجتنابه . قال : وكان بعض الناس يذهب إلى أن الأمر بالاجتناب ، إنما هو للمخافة على الصحيح من ذوات العاهة . قال : وهذا شر ماحمل عليه الحديث ، لأن فيه إثبات العدوى التى نفاها الشارع ، ولكن وجه الحديث عندى ماذكرته .

وأطنب ابن خزيمة فى هذا فى كتاب « التوكل » ، فإنه أورد حديث « لا عدوى » عن عدة من الصحابة ، وحديث : « لايورد ممرض على مصح » من حديث أبى هريرة .. وترجم للأول : « التوكل على الله فى نفى العدوى » وللثانى : ذكر خبر غلط فى معناه بعض العلماء ، وأثبت العدوى التى نفاها النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم ترجم : « الدليل على أن النبى ـ ﷺ ـ لم يرد إثبات العدوى بهذا القول » فساق حديث أبى هريرة : « لاعدوى » فقال أعرابى : فما بال الإبل يخالطها الأجرب فتجرب ؟ قال : « **فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ** ؟ » ثم ذكر طرقه عن أبى هريرة ، ثم أخرجه من حديث ابن مسعود ، ثم ترجم ، « ذكر خبر روى فى الأمر بالفرار من المجذوم ، قد يخطر لبعض الناس أن فيه إثبات العدوى وليس كذلك » .. وساق حديث : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » ، من حديث أبى هريرة وحديث عائشة ، وحديث عمرو بن الشريد عن أبيه ، فى أمر المجذوم بالرجوع ، وحديث ابن عباس : « لاتديموا النظر إلى المجذومين » . ثم قال : « إنما أمرهم ـ ﷺ ـ بالفرار من المجذوم كما نهاهم أن يورد الممرض على المصح ، شفقة عليهم ، وخشية أن يصيب بعض من يخالطه المجذوم الجذام ، والصحيح من الماشية

الجرب ، فيسبق إلى بعض المسلمين أن ذلك من العدوى ، فيثبت العدوى التى نفاها - ﷺ - فأمرهم بتجنب ذلك شفقة منه ورحمة ، ليسلموا من التصديق بإثبات العدوى ، وبين لهم أنه لا يعدى شيء شيئا .

قال : ويؤيد هذا أكله - ﷺ - مع المجذوم ، ثقة بالله وتوكلا عليه ، ثم ساق حديث جابر فى ذلك ، ثم قال : وأما نهيه عن إدامة النظر إلى المجذوم فيحتمل أن يكون لأن المجذوم يغتم ويكره إدمان الصحيح نظره إليه ، لأنه قل من يكون به داء إلا وهو يكره أن يطلع عليه .. أ.هـ .

وهذا الذى ذكره احتمالا سبقه إليه مالك ، فإنه سئل عن هذا الحديث - فقال : ما سمعت فيه بكراهية ، وما أدرى ماجاء من ذلك ، إلا مخافة أن يقع فى نفس المؤمن شيء .. وقال الطبرى : الصواب عندنا ، القول بما صح به الخبر ، وأن لا عدوى ، وأنه لايصيب نفسا إلا ماكتب عليها .. وأما دنو عليل من صحيح فغير موجب انتقال العلة للصحيح ، إلا أنه لاينبغى لذى صحة الدنو من صاحب العاهة التى يكرهها الناس ، لا لتحريم ذلك ، بل لخشية أن يظن الصحيح أنه لو نزل به ذلك الداء أنه من جهة دنوه من العليل ، فيقع فيما أبطله النبى من العدوى ، قال : وليس فى أمره بالفرار من المجذوم معارضة لأكله معه ، لأنه كان يأمر بالأمر على سبيل الإرشاد أحيانا ، وعلى سبيل الإباحة أخرى ، وإن كان أكثر الأوامر على الإلزام ، وإنما كان يفعل مانهى عنه أحيانا ، لبيان أن ذلك ليس حراما .

وقد سلك الطحاوى فى « معانى الآثار » مسلك ابن خزيمة فيما ذكره ، فأورد حديث : « لايورد ممرض على مصح » ثم قال : معناه أن المصح قد يصيبه ذلك المرض ، فيقول الذى أورده : لو أنى ما أوردته عليه لم يصبه من هذا المرض شيء .. والواقع أنه لو لم يورده لأصابه ، لكون الله تعالى قدره ، فنهى عن إيراده لهذه العلة التى لايؤمن غالبا من وقوعها فى قلب المرء .. ثم ساق الأحاديث فى ذلك فأطنب ، وجمع بينها بنحو ماجمع به ابن خزيمة .

ولذلك قال القرطبى فى « المفهم » : إنما نهى رسول الله — ﷺ — عن إيراد الممرض على المصح ؛ مخافة الوقوع فيما وقع فيه أهل الجاهلية من اعتقاد العدوى ، أو مخافة تشويش النفوس وتأثير الأوهام ، وهو نحو قوله : « فر من المجذوم فرارك من الأسد » ، وإن كنا نعتقد أن الجذام لايعدى ، لكنا نجد فى أنفسنا نفرة وكراهية لمخالطته ، حتى لو أكره إنسان نفسه على القرب منه وعلى مجالسته لتأذت نفسه بذلك ، وحينئذ فالأولى للمؤمن ألا يتعرض إلى مايحتاج فيه إلى مجاهدة ، فيجتنب طرق الأوهام ، ويباعد أسباب الآلام ، مع أنه يعتقد أنه لاينجى حذر من قدر ، والله أعلم .

قال الشيخ أبو محمد بن أبى جمرة : ويمكن الجمع بين فعله وقوله ، بأن القول هو المشروع من أجل ضعف المخاطبين ، وفعله حقيقة الإيمان ، فمن فعل الأول أصاب السنة ، وهى أثر الحكمة ، ومن فعل الثانى كان أقوى يقينا ، لأن الأشياء كلها لا تأثير لها إلا بمقتضى إرادة الله تعالى وتقديره ، كما قال تعالى : ﴿ **وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ** ﴾[1] فمن كان قوى اليقين فله أن يتابعه — ﷺ — فى

(١) البقرة : ١٠٢ .

فعله ، ولا يضره شيء ، ومن وجد فى نفسه ضعفا فليتبع أمره بالفرار لئلا يدخل بفعله فى إلقاء نفسه إلى التهلكة .

فالحاصل : أن الأمور التى يتوقع منها الضرر ، وقد أباحت الحكمة الربانية الحذر منها فلا ينبغى للضعفاء أن يقربوها ، وأما أصحاب الصدق واليقين ، فهم فى ذلك بالخيار ، قال : وفى الحديث أن الحكم للأكثر ، لأن الغالب من الناس هو الضعف . فجاء الأمر بالفرار بحسب ذلك .(٢) (١٦٢/١٥٩/١٠) .

---

(٢) القول بأنه « لا عدوى » حسب ماورد فى الحديث قد يوقع فى لبس أو تناقض مع ماثبت من انتقال بعض الأمراض بالعدوى ، ولكنه يتفق تماماً مع قوله عليه الصلاة والسلام « فر من المجذوم فرارك من الأسد » .

أما حل التناقض الظاهر فى قوله ـ ﷺ ـ : « لا عدوى » فقد فسره بعضهم بأن رسول الله ـ ﷺ ـ يريد أن يثبت أن الأمراض لاتعدى بنفسها ، وأن الجراثيم التى تنقل هذه الأمراض إنما تنقلها بأمر الله ، فإذا أراد الله أوصل المرض من المريض إلى الصحيح ، بل يمكن أن يمرض الإنسان دون أن يخالط المرضى ، مصداقا لقوله ـ ﷺ ـ: « فمن أعدى الأول ؟ » فالأمر كله يتوقف على الإيمان بقضاء الله وقدره ، وأن الأمر كله بيد الله ، ومن هنا وجدناه ـ ﷺ ـ يأكل مع المجذوم ، انطلاقا من ثقته بالله والتوكل عليه ، ثم نراه ينهى عن المخالطة لينبهنا إلى ضرورة الأخذ بالأسباب على غرار قوله ﷺ فى حديث آخر : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » .

وأخرج البخارى : عن ابن عمر — رضى الله عنهما — أن رسول الله — ﷺ — قال : « **لَاعَدْوَى وَلَاطِيَرَةَ ، وَالشُّؤْمُ فِى ثَلَاثٍ : الْمَرْأَةِ ، وَالدَّابَّةِ ، وَالدَّارِ** » (١٠/٢١٢) وفى رواية سهل بن سعد الساعدى، يرفعه : « إِنْ كَانَ فِى شَىْءٍ فَفِى الْمَرْأَةِ، وَالفَرَسِ، والمسْكَنِ» (٦/٦٠) قال الحافظ — رحمه الله — : الطيرة - بكسر المهملة وفتح التحتانية ، وقد تسكن — هى التشاؤم ، بالشين — وهو مصدر تطير مثل تحير حيرة . قال بعض أهل اللغة : لم يجىء من المصادر هكذا غير هاتين . وتعقب بأنه سمع : طيبة ، وأورد بعضهم : التولة ، وفيه نظر .

وأصل التطير : أنهم كانوا فى الجاهلية يعتمدون على الطير ، فإذا خرج أحدهم لأمر ، فإن رأى الطير طار يمنة تيمن به واستمر ، وإن رآه طار يسرة تشاءم به ورجع ، وربما كان أحدهم يهيج الطير ليطير فيعتمدها ، فجاء الشرع بالنهى عن ذلك ، وكانوا يسمونه : السانح - بمهملة ثم نون ثم حاء مهملة — والبارح — بموحدة وآخره مهملة — فالسانح : ما ولاك ميامنه ، بأن يمر عن يسارك إلى يمينك ، والبارح ، بالعكس .

وكانوا يتيمنون بالسانح ، ويتشاءمون بالبارح ، لأنه لايمكن رميه إلا بأن ينحرف إليه ، وليس فى شىء من سنوح الطير وبروحها ما يقتضى مااعتقدوه ، وإنما هو تكلف بتعاطى مالا أصل له ، إذ لا نطق للطير ولاتمييز فيستدل بفعله على مضمون فيه ، وطلب العلم من

غير مظانه جهل من فاعله ، وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه ، قال شاعر منهم :

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحائم
فإذا الأشائم كالأيامن والأيامن كالأشائم

وقال آخر :

الزجر والطير والكهان كلهم مضللون ودون الغيب أقفال

وقال آخر :

وماعاجلات الطير تدنى من الفتى نجاحاً، ولا عن ريثهن قصور

وقال آخر :

لعمرك ماتدرى الطوارق بالحصى ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال آخر :

تخير طيرةً فيها زياد لتخبره وما فيها خبير
تعلم أنه لا طير إلا على متطير وهو الثبور
بلى .. شيء يوافق بعض شيء أحايينا ، وباطله كثير

وكان أكثرهم يتطيرون ، ويعتمدون على ذلك ، ويصح معهم غالبا لتزيين الشيطان ذلك ، وبقيت من ذلك بقايا فى كثير من المسلمين ، وقد أخرج ابن حبان فى صحيحه من حديث أنس رفعه : « لاطيرة ، والطيرة على من تطير » . وأخرج عبد الرزاق عن معمر عن إسماعيل بن أمية عن النبى ـ ﷺ ـ : « **ثَلَاثَةٌ لَايَسْلَمُ مِنْهنَّ أَحَدٌ : الطِّيَرَةُ ، وَالظَّنُّ ، وَالْحَسَدُ ، فَإِذَا تَطَيَّرْتَ فَلَا تَرْجِعْ ، وَإِذَا ظَنَنْتَ فَلَا تُحقِّقْ** » . وهذا مرسل أو معضل ، لكن له شاهد من

حديث أبى هريرة أخرجه البيهقى فى « الشعب » . وأخرج ابن عدى بسند لين عن أبى هريرة ، رفعه : « إذا تطيرتم فامضوا ، وعلى الله فتوكلوا » وأخرج الطبرانى عن أبى الدرداء ، رفعه : « لن ينال الدرجات العلا من تكهن ، أو استقسم ، أو رجع من سفر تطيراً » ، ورجاله ثقات ، إلا أننى أظن أن فيه انقطاعاً ، وله شاهد عن عمران ابن حصين ، وأخرج البزار فى أثناء حديث بسند جيد .

وأخرج أبو داود والترمذى وصححه هو وابن حبان عن ابن مسعود رفعه : « الطيرة شرك » ومامنا إلا تطير ، ولكن الله يذهبه بالتوكل . وقوله : « ومامنا إلا ..» من كلام ابن مسعود أدرج فى الخبر ، وقد بينه سليمان بن حرب شيخ البخارى فيما حكاه الترمذى عن البخارى عنه .

وإنما جعل ذلك شركا ؛ لاعتقادهم أن ذلك يجلب نفعا أو يدفع ضرا ، فكأنهم أشركوه مع الله تعالى . وقوله : «**ولكن الله يذهبه بالتوكل**» . إشارة إلى أن من وقع له ذلك فسلم لله ولم يعبأ بالطيرة ، أنه لايؤاخذ بما عرض له من ذلك ، وأخرج البيهقى فى « الشعب » من حديث عبد الله بن عمرو موقوفا : «مَن عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل : اللهم لاطير إلا طيرك ، ولا خير إلا خيرك ، ولا إله غيرك » (١٠/٢١٢ - ٢١٣) .

وظاهر الحديث أن الشؤم والطيرة فى هذه الثلاثة . قال ابن قتيبة : ووجهه أن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون ، فنهاهم النبى - ﷺ - وأعلمهم أن لا طيرة ، فلما أبوا أن ينتهوا بقيت الطيرة فى هذه الأشياء الثلاثة . قلت : فمشى ابن قتيبة على ظاهره ، ويلزم على قوله أن من تشاءم بشيء منها نزل به مايكره .

قال القرطبى : ولايظن به أنه يحمله على ماكانت الجاهلية تعتقده بناء على أن ذلك يضر وينفع بذاته ، فإن ذلك خطأ ، وإنما عنى أن هذه الأشياء هى أكثر مايتطير به الناس ،فمن وقع فى نفسه شىء أبيح له أن يتركه ويستبدل به غيره .

قلت : وقد وقع فى رواية عمر العسقلانى — وهو ابن محمد بن زيد بن عبد الله بن عمر — عن أبيه عن ابن عمر ، عند البخارى فى باب النكاح ، بلفظ : ذكروا الشؤم فقال : « إن كان فى شىء ففى ..» ولمسلم : « إن يك من الشؤم شىء حق ..» وفى رواية عتبة ابن مسلم: « إن كان الشؤم فى شىء ..» . وكذا فى حديث جابر عند مسلم ، وهو موافق لحديث سهل بن سعد ثانى حديثى الباب ، وهو يقتضى عدم الجزم بذلك بخلاف رواية الزهرى (أى : أول حديثى الباب المروى عن ابن عمر) .

قال ابن العربى : معناه : إن كان الله قد خلق الشؤم فى شىء مما جرى من بعض العادة ، فإنما يخلقه فى هذه الأشياء .قال المازرى : مجمل هذهالرواية : إن يكن الشؤم حقا فهذه الثلاث أحق به ، بمعنى أن النفوس يقع فيها التشاؤم بهذه أكثر مما يقع بغيرها . وجاء عن عائشة أنها أنكرت هذا الحديث ، فروى أبو داود الطيالسى فى « مسنده » عن محمد بن راشد عن مكحول ، قال : قيل لعائشة : إن أبا هريرة قال : قال رسول الله — ﷺ — : « **الشؤم فى ثلاثة ..**» فقالت : لم يحفظ ، إنه دخل وهو يقول: «قاتل الله اليهود؛ يقولون : الشؤم فى ثلاثة ..» فسمع آخر الحديث ، ولم يسمع أوله ، قلت : ومكحول لم يسمع من عائشة فهو منقطع ، لكن روى أحمد وابن خزيمة والحاكم من طريق قتادة عن أبى حسان : « أن رجلين من بنى

عامر دخلا على عائشة فقالا : إن أبا هريرة قال : إن رسول الله — ﷺ — قال : « الطيرة فى الفرس والمرأة والدار » ، فغضبت غضباً شديدا ، وقالت : ماقاله ، وإنما قال : « إن أهل الجاهلية كانوا يتطيرون من ذلك » انتهى .

ولا معنى لإنكار ذلك على أبى هريرة ، مع موافقة من ذكرنا من الصحابة له فى ذلك . وقد تأوله غيرهم على أن ذلك سيق لبيان اعتقاد الناس فى ذلك ، لا أنه إخبار عن النبى — ﷺ — بثبوت ذلك . وسياق الأحاديث الصحيحة المتقدم ذكرها يبعد هذا التأويل ، قال ابن العربى : هذا جواب ساقط لأنه — ﷺ — لم يبعث ليخبر الناس عن معتقداتهم الماضية والحاصلة ، وإنما بعث ليعلمهم مايلزمهم أن يعتقدوه . انتهى .

وأما ماأخرجه الترمذى من حديث حكيم بن معاوية قال : سمعت رسول الله — ﷺ — يقول : « **لَاشُؤْمَ ، وَقَدْ يَكُونُ الْيُمْنُ فِى الْمَرْأَةِ وَالدَّارِ وَالْفَرَسِ** » ، ففى إسناده ضعف ، مع مخالفته للأحاديث الصحيحة . وقال عبد الرزاق فى « مصنفه » : عن معمر : سمعت من يفسر هذا الحديث يقول : شؤم المرأة إذا كانت غير ولود ، وشؤم الفرس إذا لم يغز عليه ، وشؤم الدار جار السوء .

وروى أبو داود فى الطب عن ابن القاسم عن مالك أنه سئل عنه ، فقال : كم من دار سكنها ناس فهلكوا . قال المازرى : فيحمله مالك على ظاهره . والمعنى أن قدر الله ربما اتفق مع ما يكره عند سكنى الدار ، فتصير فى ذلك كالسبب ، فتسامح فى إضافة الشىء إليه اتساعا . وقال ابن العربى : لم يرد مالك إضافة الشؤم إلى الدار ، وإنما هو عبارة عن جرى العادة فيها ، فأشار إلى أنه ينبغى للمرء الخروج عنها صيانة

لاعتقاده عن التعلق بالباطل . وقيل : معنى الحديث أن هذه الأشياء يطول تعذيب القلب بها مع كراهة أمرها ، لملازمتها بالسكنى والصحبة ، ولو لم يعتقد الإنسان الشؤم فيها ، فأشار الحديث إلى الأمر بفراقها ليزول التعذيب .

قلت : وما أشار إليه ابن العربى فى تأويل كلام مالك أولى . وهو نظير الأمر بالفرار من المجذوم مع صحة نفى العدوى ، والمراد بذلك حسم المادة وسد الذريعة لئلا يوافق شيء من ذلك القدر ، فيعتقد من وقع له أن ذلك من العدوى أو من الطيرة ، فيقع فى اعتقاد مانهى عن اعتقاده ، فأشير إلى اجتناب مثل ذلك ، والطريق فيمن وقع له ذلك فى الدار مثلا ، أن يبادر إلى التحول منها ، لأنه إن استمر فيها ربما حمله ذلك على اعتقاد صحة الطيرة والتشاؤم .

وأما مارواه أبو داود وصححه الحاكم من طريق إسحاق بن طلحة عن أنس ؛ قال رجل : يارسول الله ، إنا كنا فى دار كثير فيها عددنا وأموالنا ، فتحولنا إلى أخرى فقل فيها ذلك . فقال : « ذروها ؛ ذميمة » . وأخرج من حديث فروة بن مسيك ـــ بالمهملة مصغرا ـــ مايدل على أنه هو السائل ، وله شاهد من حديث عبد الله بن شداد ابن الهاد ـــ أحد كبار التابعين ـــ وله رواية بإسناد صحيح إليه عند عبد الرزاق .

قال ابن العربى : ورواه مالك عن يحيى بن سعيد منقطعا ، قال : والدار المذكورة فى حديثه ، كانت دار مكمل ـــ بضم الميم وسكون الكاف وكسر الميم بعدها لام ـــ وهو ابن عوف ، أخو عبد الرحمن ابن عوف ـــ قال : وإنما أمرهم بالخروج منها لاعتقادهم أن ذلك منها وليس كما ظنوا ، لكن الخالق جل وعلا ، جعل ذلك وفقا لظهور

قضائه ، وأمرهم بالخروج منها لئلا يقع لهم بعد ذلك شيء فيستمر اعتقادهم .

قال ابن العربى : وأفاد وصفها بكونها ذميمة جواز ذلك ، وأن ذكرها بقبيح ماوقع فيها سائغ من غير أن يعتقد أن ذلك كان منها . ولا يمتنع ذم محل المكروه ، وإن كان ليس منه شرعا ، كما يذم العاصى على معصيته وإن كان ذلك بقضاء الله تعالى .

وقال الخطابى : هو استثناء من غير الجنس ، ومعناه : إبطال مذهب الجاهلية فى التطير ، فكأنه قال : إن كانت لأحدكم دار يكره سكناها ، أو امرأة يكره صحبتها ، أو فرس يكره سيره ، فليفارقه ... قال : وقيل : المعنى ماجاء بإسناد ضعيف رواه الدمياطى فى « الخيل » : « إذا كان الفرس ضروباً فهو مشئوم ، وإذا حنت المرأة إلى بعلها الأول فهى مشئومة ، وإذا كانت الدار بعيدة من المسجد لايسمع منها الأذان فهى مشئومة » وقيل : كان قوله ذلك فى أول الأمر ، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى : ﴿ **مَآأَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَابٍ** ﴾[1] الآية . حكاه ابن عبد البر. والنسخ لا يثبت بالاحتمال ، ولا سيما مع إمكان الجمع ، وقد ورد فى نفس هذا الخبر نفى التطير ثم إثباته فى الأشياء المذكورة .

وقيل : يحمل الشؤم على قلة الموافقة وسوء الطباع ، وهو كحديث سعد بن أبى وقاص ، رفعه : « من سعادة المرء المرأة الصالحة ، والمسكن الصالح والمركب الهنيء . ومن شقاوة المرء المرأة

---

(١) الحديد : ٢٢ .

السوء والمسكن السوء والمركب السوء » أخرجه أحمد . وهذا يختص ببعض أنواع الأجناس المذكورة دون بعض . وبه صرح ابن عبد البر فقال : قد يكون لقوم دون قوم .. وذلك كله بقدر الله ..

وقال المهلب ماحاصله : إذا كان المخاطب بقوله : « الشؤم فى ثلاثة » من التزم التطير ولم يستطع صرفه عن نفسه فقال لهم : إنما يقع ذلك فى هذه الأشياء التى تلازم فى غالب الأحوال ، فإذا كان ذلك كذلك فاتركوها عنكم ، ولا تعذبوا أنفسكم بها ، ويدل على ذلك تصديره الحديث بنفى الطيرة . واستدل لذلك بما أخرجه ابن حبان عن أنس رفعه : « لاطيرة ، والطيرة على من تطير ، وإن تكن فى شىء ففى المرأة ..» الحديث .. وفى صحته نظر ، لأنه من رواية عتبة بن حميد عن عبد الله بن أبى بكر عن أنس ، وعتبة مختلف فيه (٦٠/٦ - ٦٣) .

قال أبو زيد : هى بالتشديد ، وخالفه الجميع فخففوها ، وهو المحفوظ فى الرواية ، وكأن من شددها ذهب إلى واحدة الهوام ، وهى ذوات السموم . وقيل : دواب الأرض التى تهم بأذى الناس ، وهذا لايصح نفيه إلا إن أريد أنها لاتضر لذواتها ، وإنما تضر إذا أراد الله إيقاع الضرر بمن أصابته .

وقد ذكر الزبير بن بكار فى « الموفقيات » أن العرب كانت فى الجاهلية تقول : إذا قتل الرجل ولم يؤخذ بثأره ، خرجت من رأسه هامة ــ وهى دودة ــ فتدور حول قبره فتقول : اسقونى اسقونى . فإن أدرك بثأره ذهبت وإلا بقيت . وفى ذلك يقول شاعرهم :

يا عمرو إن لا تدع شتمى ومنقصتى

أضـربك حتى تقول الهامة : اسقونى

قال : وكانت اليهود تزعم أنها تدور حول قبره سبعة أيام ثم تذهب . وذكر ابن فارس وغيره من اللغويين نحو الأول ، إلا أنهم لم يعينوا كونها دودة ، بل قال القزاز : الهامة طائر من طير الليل ، كأنه يعنى البومة ، وقال ابن الأعرابى . كانوا يتشاءمون بها ، إذا وقعت على بيت أحدهم يقول : نعت إلىَّ نفسى أو أحدا من أهل دارى .

وقال أبو عبيد : كانوا يزعمون أن عظام الميت تصير هامة فتطير ، ويسمون ذلك الطائر « الصدى » . فعلى هذا ، فالمعنى فى الحديث : لا حياة لهامة الميت . وعلى الأول : لاشؤم بالبومة ونحوها . (١٠/٢٤١) .

قال البخارى ـــ رحمه الله ـــ مترجما : وهو داء يأخذ البطن . قال الحافظ ـــ رحمه الله ـــ : كذا جزم بتفسير الصفر ـــ وهو بفتحتين ـــ وقد نقل أبو عبيدة معمر بن المثنى فى « غريب الحديث » له : عن يونس بن عبيد الجرمى أنه سأل رؤبة بن العجاج ، فقال : هى حية تكون فى البطن تصيب الماشية والناس ، وهى أعدى من الجرب عند العرب ، فعلى هذا ، فالمراد بنفى الصفر ماكانوا يعتقدونه فيه من العدوى .

ورجح الطبرى هذا القول واستشهد له بقول الأعشى :

وَلَا يَعَضُّ عَلَى شُرْسُوفِهِ الصَّفَرُ

والشرسوف بضم المعجمة وسكون الراء ثم مهملة ثم فاء ـــ: الضلع ، والصفر : دود يكون فى الجوف ، فربما عض الضلع أو الكبد فقتل صاحبه . وقيل : المراد بالصفر : الحية ، لكن المراد بالنفى نفى ماكانوا يعتقدون أن من أصابه قتله ، فرد الشارع ذلك بأن الموت لايكون إلا إذا فرغ الأجل . وقد جاء هذا التفسير عن جابر ، وهو أحد رواة حديث : « لا صفر » ، قاله الطبرى . وقيل فى الصفر قول آخر ، وهو أن المراد به شهر صفر ، وذلك أن العرب كانت تحرم صفر وتستحل المحرم ، فجاء الإسلام برد ماكانوا يفعلونه من ذلك ، فلذلك قال ـــ ﷺ ـــ : « **لا صفر** » . قال ابن بطال : وهذا القول مروى عن مالك . والصفر أيضا : وجع فى البطن يأخذ

من الجوع ومن اجتماع الماء الذى يكون منه الاستسقاء . ومن الأول حديث : « **صَفْرَةٌ فِى سَبِيل اللهِ خَيْرٌ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ** » أى : جوعة . ويقولون : صفر الإناء إذا خلا عن الطعام . ومن الثانى مافى حديث ابن مسعود : أن رجلا أصابه الصفر فنعت له السَّكَر . أى : حصل له الاستسقاء فوصف له النبيذ . وحمل الحديث على هذا لايتجه ، بخلاف ماسبق . (١٠/١٧١) .

أخرج البخارى ـ رحمه الله ـ من حديث أبى سلمة بن عبد الرحمن وغيره ، أن أبا هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال : إن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **لَا عَدْوَى وَلَا صَفَرَ وَلَا هَامَةَ** » . فقال أعرابى : يارسول الله ، فما بال إبلى تكون فى الرمل كأنها الظباء ، فيأتى البعير الأجرب فيدخل بينها فيجربها ؟ فقال : « فَمن أعدى الأول ؟ » (١٠/١٧١) .

قال الحافظ : وأخرج مسلم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة مثل رواية أبى سلمة وزاد : « وَلَا نَوء » ولمسلم وابن حبان من طريق ابن جريج : أخبرنى أبو الزبير أنه سمع جابرا يلفظ : « لا عدوى ولا صفر ولا غول » (١٠/١٥٨) .

أما الغول فقال الجمهور : كانت العرب تزعم أن الغيلان فى الفلوات ، وهى جنس من الشياطين تتراءى للناس ، وتتغول لهم تغولاً ، أى : تتلون تلونا ، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، وقد كثر فى كلامهم : غالته الغول ، أى : أهلكته وأضلته .. فأبطل ـ ﷺ ـ ذلك .

وقيل : ليس المراد إبطال وجود الغيلان ، وإنما معناه إبطال ماكانت العرب تزعمه من تلون الغول بالصور المختلفة . قالوا : والمعنى ، لايستطيع الغول أن يضل أحدا ، ويؤيده حديث . « **إِذَا تَغَوَّلَتِ الْغِيلَانُ فَنَادُوا بِالْأَذَانِ** » . أى : ادفعوا شرها بذكر الله .

وفى حديث أبى أيوب عند قوله : (كانت لى سهوة فيها تمر ، فكانت الغول تجىء فتأكل منه) الحديث (١٥٩/١٠) .

وأما النوء فقد أخرج البخارى عن زيد بن خالد الجهنى أنه قال : صلى لنا رسول الله ـــ ﷺ ـــ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل ، فلما انصرف النبى ـــ ﷺ ـــ أقبل على الناس فقال : « **هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟** » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « **قَالَ : أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِى مُؤْمِنٌ بِى وَكَافِرٌ ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِى كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا فَذَلِكَ كَافِرٌ بِى مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ** » (٥٢٢/٢) .

قال الحافظ ـــ رحمه الله ـــ: يحتمل أن يكون المراد بالكفر هنا كفر الشرك ، بقرينة مقابلته بالإيمان ، ولأحمد من رواية نصر بن عاصم الليثى عن معاوية الليثى مرفوعاً: « **تَكُونُ النَّاسُ مُجْدِبِينَ فَيُنْزِلُ اللهُ عَلَيهِمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقِهِ، فَيُصْبِحُونَ مُشْرِكِينَ يَقُولُونَ : مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا** » .

ويحتمل أن يكون المراد به كفر النعمة ، ويرشد إليه قوله فى رواية معمر عن صالح بن سفيان : « **فَأَمَّا مَنْ حَمِدَنِى عَلَى سُقْيَاىَ ، وَأَثْنَى عَلَىَّ فَذَلِكَ آمَنَ بِى** » وفى رواية سفيان عن النسائى والإسماعيلى نحوه ، وقال فى آخره : « **وَكَفَرَ بِى - أَوْ كَفَرَ بِنِعْمَتِى ـــ** » وفى رواية أبى هريرة عند مسلم : « **قَالَ اللهُ : مَاأَنْعَمْتُ عَلَى عِبَادِى مِنْ نِعْمَةٍ إِلَّا أَصْبَحَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ كَافِرِينَ بِهَا** » . وله فى حديث ابن عباس : « **أَصْبَحَ مِنَ النَّاسِ شَاكِرٌ وَمِنْهُمْ كَافِرٌ** » .

وعلى الأول حمله كثير من أهل العلم ، وأعلى ماوقفت عليه من ذلك كلام الشافعي ، قال في « الأم » : من قال : مطرنا بنوء كذا وكذا على ماكان بعض أهل الشرك يعنون ، من إضافة المطر إلى أنه مطر نوء كذا ، فذلك كفر كما قال رسول الله ـ ﷺ ـ لأن النوء وقت ، والوقت مخلوق لايملك لنفسه ولا لغيره شيئا . ومن قال : مطرنا بنوء كذا ، على معنى: مطرنا فى وقت كذا ، فلا يكون كفرا ، وغيره من الكلام أحب إلى منه ، يعنى حسما للمادة ، وعلى ذلك يحمل إطلاق الحديث .

وحكى ابن قتيبة فى كتاب « الأنواء » : أن العرب كانت فى ذلك على مذهبين ، على نحو ماذكر الشافعي . قال : ومعنى النوء : سقوط نجم فى المغرب من النجوم الثمانية والعشرين التى هى منازل القمر ، قال : وهو مأخوذ من ناء : إذا نهض . ولاتخالف بين القولين فى الوقت ، لأن كل نجم منها إذا طلع فى المشرق وقع حال طلوعه آخر فى المغرب . لايزال ذلك مستمرا إلى أن تنتهى الثمانية والعشرون بانتهاء السنة . فإن كل واحد منها ثلاثة عشر يوماً تقريباً .

قال : وكانوا فى الجاهلية يظنون أن نزول الغيث بواسطة النوء . إما بصنعه على زعمهم ، وإما بعلامته . فأبطل الشرع قولهم وجعله كفراً . فإن اعتقد قائلُ ذَلِكَ أن للنوء صنعاً فى ذلك ، فكفره كفر تشريك ، وإن اعتقد أن ذلك من قبيل التجربة فليس بشرك ، لكن يجوز إطلاق الكفر عليه وإرادة كفر النعمة ، لأنه لم يقع فى شىء من طرق الحديث بين الكفر والشرك واسطة ، فيحمل الكفر فيه على المعنيين لتناول الأمرين ، والله أعلم .

ولا يرد الساكت ، لأن المعتقد قد يشكر بقلبه أو يكفر ، وعلى

هذا ، فالقول فى قوله : «فأما من قال» لما هو أعم من النطق والاعتقاد ، كما أن الكفر فيه لما هو أعم من كفر الشرك وكفر النعمة .. والله أعلم بالصواب .

وفى حديث أبى سعيد عند النسائى : «مُطِرْنَا بِنَوْءِ الْمِجْدَحِ» ـ بكسر الميم وسكون الجيم وفتح الدال بعدها مهملة ، ويقال : بضم أوله ـ : هو «الدبران» بفتح المهملة والموحدة بعدها ـ وقيل : سمى بذلك لاستدباره الثريا ، وهو نجم أحمر صغير منير .

قال ابن قتيبة : كل النجوم المذكورة له نوء ، غير أن بعضها أحمر وأغزر من بعض ، ونوء الدبران غير محمود عندهم ، انتهى . وكأن ذلك ورد فى الحديث تنبيهاً على مبالغتهم فى نسبة المطر إلى النوء ، ولو لم يكن محموداً أو اتفق وقوع ذلك المطر فى ذلك الوقت ، إن كانت القصة واحدة .

وفى «مغازى» الواقدى : أن الذى قال فى ذلك الوقت : «مطرنا بنوء الشعرى» هو عبد الله بن أبى ، المعروف بابن سلول ، أخرجه من حديث أبى قتادة . (٥٢٣/٢ ـ ٥٢٤) .

أخرج البخارى ـ رحمه الله ـ: عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ﷺ ـ قال : «**الْعَيْنُ حَقٌّ**» ونهى عن الوشم . (١٠/٢٠) .

وأخرج عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ: أن النبى ﷺ ـ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة ، فقال : «**اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ**» (١٠/١٩٩) .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: «الْعَيْنُ حَقٌّ» أى : الإصابة بها شىء ثابت موجود ، أو هو من جملة ما تحقق . وقد قال المازرى: أخذ الجمهور بظاهر الحديث ، وأنكره طوائف المبتدعة لغير معنى ، لأن كل شىء ليس محالاً فى نفسه ولا يؤدى إلى قلب حقيقة ولا إفساد دليل ، فهو من متجاوزات العقول ، فإذا أخبر الشرع بوقوعه لم يكن لإنكاره معنى ، وهل من فرق بين إنكارهم هذا وإنكارهم ما يخبر به من أمور الآخرة (١٠/٢٠٣) .

تقول : عِنْتُ الرجلَ : أصبته بعينك ، فهو معين ومعيون ، ورجل عَيِنٌ ومِعْيَانٌ وَعَيُونٌ . والعين : نظر باستحباب مشوب بحسد من خبيث الطبع يحصل للمنظور منه ضرر .

وقد وقع عند أحمد من وجه آخر عن أبى هريرة رفعه : «**الْعَيْنُ حَقٌّ وَيَحْضُرُهَا الشَّيْطَانُ وَحَسَدُ ابْنِ آدَمَ**» . وقد أشكل ذلك على بعض الناس فقال : كيف تعمل العين من بعد حتى يحصل الضرر

للمعيون ؟ والجواب : أن طبائع الناس تختلف ، فقد يكون ذلك من سم يصل من عين العائن فى الهواء إلى بدن المعيون . وقد نقل عن بعض من كان معياناً أنه قال : إذا رأيت شيئاً يعجبنى وجدت حرارة تخرج من عينى . ويُقَرِّبُ ذلك بالمرأة الحائض تضع يدها فى إناء اللبن فيفسد ، ولو وضعتها بعد طهرها لم يفسد، وكذا تدخل البستان فتضر بكثير من الغروس من غير أن تمسها يدها، ومن ذلك أن الصحيح قد ينظر إلى العين الرمداء فيرمد ، ويتثاءب واحد بحضرته فيتثاءب هو . أشار إلى ذلك ابن بطال .

وقال الخطابى : فى الحديث أن للعين تأثيراً فى النفوس ، وإبطال قول الطبائعيين أن العائن ينبعث من عينه قوة سمية تتصل بالمعين فيهلك أو يفسد ، وهو كإصابة السم من نظر الأفاعى ، وأشار إلى منع الحصر فى ذلك مع تجويزه ، وأن الذى يتمشى على طريقة أهل السنة أن العين إنما تضر عند نظر العائن ، بعادة أجراها الله تعالى ، أن يحدث الضرر عند مقابلة شخص لآخر ، وهل ثم جواهر خفية أم لا ؟ هو أمر محتمل لا يقطع بإثباته أو بنفيه ، ومن قال ممن ينتمى إلى الإسلام من أصحاب الطبائع بالقطع ، بأن جواهر لطيفة غير مرئية تنبعث من العائن فتتصل بالمعيون ، وتتخلل مسام جسمه ، فيخلق البارىء الهلاك عندها ، كما يخلق الهلاك عند شرب السموم ، فقد أخطأ بدعوى القطع ولكن جائز أن يكون عادة ، ليست ضرورة ولا طبيعة . ا. هـ .

وهو كلام سديد . وقد بالغ ابن العربى فى إنكاره ، قال : ذهبت الفلاسفة إلى أن الإصابة بالعين صادرة عن تأثير النفس بقوتها فيه ، فأول ماتؤثر فى نفسها ثم تؤثر فى غيرها . وقيل : إنما هو سم فى عين

العائن يصيب بلفحه عند التحديق إليه ، كما يصيب لفح سم الأفعى من يتصل به . ثم رد الأول : بأنه لو كان كذلك لما تخلفت الإصابة فى كل حال ، والواقع خلافه . والثانى : بأن سم الأفعى جزء منها وكلها قاتل ، والعائن ليس يقتل منه شئ فى قولهم إلا نظره ، وهو معنى خارج عن ذلك .

قال : والحق أن الله يخلق عند نظر العائن إليه وإعجابه به إذا شاء ما شاء من ألم أو هلكة . وقد يصرفه قبل وقوعه . إما بالاستعاذة أو بغيرها ، وقد يصرفه قبل وقوعه بالرقية أو بالاغتسال أو بغير ذلك ، انتهى كلامه ، وفيه بعض ما يتعقب .

فإن الذى مثل بالأفعى لم يرد أنها تلامس المصاب حتى يتصل به من سمها ، وإنما أراد أن جنساً من الأفاعى اشتهر أنها إذا وقع بصرها على الإنسان هلك ـ فكذلك العائن . وقد أشار ـ ﷺ ـ إلى ذلك فى حديث أبى لبابة ، الذى أخرجه البخارى ، فى بدء الخلق عند ذكر الأبتر وذى الطفيتين ، قال : « **فَإِنَّهُمَا يَطْمِسَانِ الْبَصَرَ وَيُسْقِطَانِ الْحَبَلَ** » . وليس مراد الخطابى بالتأثير المعنى الذى يذهب إليه الفلاسفة ، بل ما أجرى الله به العادة من حصول الضرر للمعيون .

وقد أخرج البزار بسند حسن عن جابر رفعه : « **أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ بَعْدَ قَضَاءِ اللهِ تَعَالَى وَقَدَرِهِ بِالنَّفْسِ** » قال الراوى : يعنى بالعين .

وقد أجرى الله العادة بوجود كثير من القوى والخواص فى الأجسام والأرواح ، كما يحدث لمن ينظر إليه من يحتشمه من الخجل ، فيرى فى وجهه حمرة شديدة لم تكن قبل ذلك . وكذا الاصفرار عند رؤية من يخافه ، وكثير من الناس يسقم بمجرد النظر إليه وتضعف قواه . وكل ذلك بواسطة ما خلق الله تعالى فى الأرواح من

التأثيرات ، ولشدة ارتباطها بالعين نسب الفعل إلى العين ، وليست هى المؤثرة ، وإنما التأثير للروح . والأرواح مختلفة فى طبائعها وقواها وكيفياتها وخواصها ، فمنها ما يؤثر فى البدن بمجرد الرؤية من غير اتصال به ، لشدة خبث تلك الروح وكيفيتها الخبيثة .

والحاصل أن التأثير بإرادة الله تعالى ، وخلقه ليس مقصوراً على الاتصال الجسمانى بل يكون تارة به وتارة بالمقابلة ، وأخرى بمجرد الرؤية ، وأخرى بتوجه الروح ، كذلك يحدث من الأدعية والرق والالتجاء إلى الله وتارة يقع ذلك بالتوهم والتخيل . فالذى يخرج من عين العائن سهم معنوى ، إن صادف البدن لا وقاية له أثر فيه . وإلا لم ينفذ السهم ، بل ربما رد على صاحبه ، كالسهم الحسى سواء (١٠/٢٠٠ – ٢٠١) .

واختلف فى المراد بالنظرة ، فقيل : عين من نظر الجن ، وقيل : من الإنس ، وبه جزم أبو عبيد الهروى ، والأولى أنه أعم من ذلك . وأنها أصيبت بالعين ، فلذلك أذن – ﷺ – فى الاسترقاء لها ، وهو دال على مشروعية الرقية من العين . (١٠/٢٠٢) .

وقوله : «العين حق ، ونهى عن الوشم» لم تظهر المناسبة بين هاتين الجملتين ، فكأنهما حديثان مستقلان ، ولهذا حذف مسلم وأبو داود الجملة الثانية من روايتهما ، مع أنهما أخرجاه من رواية عبد الرزاق الذى أخرجه البخارى من جهته ، ويحتمل أن يقال : المناسبة بينهما اشتراكهما فى أن كلا منهما يحدث فى العضو لوناً غير لونه الأصلى .

والْوشْمُ – بفتح الواو وسكون المعجمة –: أن يغرز إبرة أو نحوها فى موضع من البدن حتى يسيل الدم ، ثم يحشى ذلك الموضع بالكحل

أو نحوه فيخضر. وقد ظهرت لى مناسبة بين هاتين الجملتين ، لم أر من سبق إليها ، وهى أن من جملة الباعث على عمل الوشم تغير صفة الموشوم لئلا تصيبه العين ، فنهى عن الوشم مع إثبات العين ، وأن التحيل بالوشم وغيره ، مما لا يستند إلى تعليم الشارع ، لا يفيد شيئاً ، وأن الذى قدره الله سيقع .

وأخرج مسلم من حديث ابن عباس رفعه : « **الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَلَوْ كَانَ شَيْءٌ سَابِقَ الْقَدَرِ لَسَبَقَتْهُ الْعَيْنُ ، وَإِذَا اسْتُغْسِلْتُمْ فَاغْسِلُوا** » .

فأما الزيادة الأولى ففيها تأكيد وتنبيه على سرعة نفوذها وتأثيره فى الذات ، وفيه إشارة إلى الرد على من زعم من المتصوفة ، أن قوله : « العين حق » يريد به القدر ، أى : العين التى تجرى منها الأحكام ، فإن عين الشىء حقيقته . والمعنى أن الذى يصيب من الضرر بالعادة عند نظر الناظر ، إنما هو بقدر الله السابق لا بشىء يحدثه الناظر فى المنظور .

ووجه الرد أن الحديث ظاهر فى المغايرة بين القدر وبين العين ، وإن كنا نعتقد أن العين من جملة المقدور ، ولكن ظاهره إثبات العين التى تصيب : إما بما جعل الله تعالى فيها من ذلك وأودعه فيها وإما بإجراء العادة بحدوث الضرر عند تحديد النظر ، وإنما جرى الحديث مجرى المبالغة فى إثبات العين ، لا أنه يمكن أن يرد القدر شىء ، إذ القدر عبارة عن سابق علم الله ، وهو لا راد لأمره ، أشار إلى ذلك القرطبى .

وحاصله : لو فرض أن شيئاً له قوة بحيث يسبق القدر لكان العين ، لكنها لا تسبق ، فكيف غيرها ، وقد أخرج البزار من حديث

جابر بسند حسن عن النبى ﷺ ـ قال : «**أَكْثَرُ مَنْ يَمُوتُ مِنْ أُمَّتِي بَعْدَ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ بِالْأَنْفُسِ**» قال الراوى : يعنى بالعين (وقد سبق منذ قليل) .

وقال النووى : فى الحديث إثبات القدر وصحة أمر العين وأنها شديدة الضرر .

وأما الزيادة الثانية : وهى أمر العائن بالاغتسال عند طلب المعيون منه ذلك الشيء ، ففيها إشارة إلى أن الاغتسال كان معلوماً بينهم ، فأمرهم ألا يمتنعوا إذا أريد منهم ، وأدنى ما فى ذلك رفع الوهم الحاصل فى ذلك . وظاهر الأمر الوجوب ، وحكى المازرى فيه خلافاً ، وصحح الوجوب وقال : متى خشى الهلاك ، وكان اغتسال العائن مما جرت العادة بالشفاء به فإنه يتعين ، وقد تقرر أنه يجبر على بذل الطعام للمضطر وهذا أولى .

ولم يبين فى حديث ابن عباس صفة الاغتسال ، وقد وقعت فى حديث سهل بن حنيف عند أحمد والنسائى ، وصححه ابن حبان من طريق الزهرى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف : أن أباه سهل بن حنيف حدثه : (أن النبى ﷺ ـ خرج وساروا معه نحو ماء ، حتى إذا كانوا بشعب الخراز من الجحفة ، اغتسل سهل بن حنيف ـ وكان أبيض حسن الجسم والجلد ـ فنظر إليه عامر بن ربيعة فقال : ما رأيت كاليوم ولا جلد مخبأة ، فلبط ـ : أى : صرع وزناً ومعنى ـ سهل . فأتى رسول الله ﷺ ـ فقال : «**هَلْ تَتَّهِمُونَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ؟**» قالوا : عامر بن ربيعة ، فدعا عامراً فتغيظ عليه ، فقال : «**عَلَامَ يَقْتُلُ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ ؟ هَلَّا إِذَا رَأَيْتَ مَا يُعْجِبُكَ بَرَّكْتَ؟**» ثم قال : «**اغْتَسِلْ لَهُ**» فغسل وجهه ويديه ومرفقيه وركبتيه وأطراف رجليه ،

وداخلة إزاره فى قدح ، ثم يصب ذلك الماء عليه رجل من خلفه ، على رأسه وظهره ، ثم يكفأ القدح . ففعل به ذلك ، فراح سهل مع الناس ، ليس به بأس) . لفظ أحمد من رواية أبى أويس عن الزهرى . ولفظ النسائى من رواية ابن أبى ذئب عن الزهرى بهذا السند : (أنه يصب صبة على وجهه بيده اليمنى وكذلك سائر أعضائه صبة صبة فى القدح . وقال فى آخره : ثم يكفأ القدح وراءه على الأرض) .

ووقع فى رواية ابن ماجه من طريق ابن عيينة عن الزهرى عن أبى أمامة : أن عامر بن ربيعة مر بسهل بن حنيف وهو يغتسل . فذكر الحديث ، وفيه : (« **فَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ** » ثم دعا بماء فأمر عامراً أن يتوضأ ، فيغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ، وركبتيه ، وداخلة إزاره ، وأمر أن يصب عليه) . قال سفيان : قال معمر عن الزهرى : (وأمر أن يكفأ الإناء من خلفه) .

قال المازرى : المراد بداخلة الإزار ، الطرف المتدلى الذى به حقوه الأيمن . قال : فظن بعضهم أنه كناية عن الفرج . انتهى . وزاد عياض : أن المراد مايلى جسده من الإزار ، وقيل : أراد موضع الإزار من الجسد ، وقيل : أراد وركه لأنه معقد الإزار .

والحديث فى « الموطأ » وفيه عن مالك : حدثنى محمد بن أبى أمامة ابن سهل ، أنه سمع أباه يقول : اغتسل سهل ، فذكر نحوه ، وفيه :ـ فنزع جبة كانت عليه ، وعامر بن ربيعة ينظر ، فقال : مارأيت كاليوم ولا جلد عذراء ، فوعك سهل مكانه ، واشتد وعكه ..ـ وفيه ـ « **أَلَا بَرَّكْتَ ؟ إِنَّ الْعَيْنَ حَقٌّ ، تَوَضَّأْ لَهُ** » فتوضأ له عامر ، فراح سهل ليس به من بأس .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ منبهاً عدة تنبيهات :

الأول : اقتصر النووى فى «الأذكار» على قوله : «الاستغسال أن يقال للعائن : اغسل داخلة إزارك مما يلى الجلد، فإذا فعل صبه على المنظور إليه» وهذا يوهم الاقتصار على ذلك ، وهو عجيب، ولا سيما وقد نقل فى «شرح مسلم» كلام عياض بطوله .

الثانى : قال المازرى : هذا المعنى لا يمكن تعليله ومعرفة وجهه من جهة العقل ، فلا يرد لكونه لا يعقل معناه ، وقال ابن العربى : إن توقف فيه متشرع قلنا له : قل : الله ورسوله أعلم ، وقد عضدته التجربة ، وصدقته المعاينة ، أومتفلسف فالرد عليه أظهر ، لأن عنده أن الأدوية تفعل بقواها ، وقد تفعل بمعنى لا يدرك ، ويسمون ما هذا سبيله «الخواص» .

وقال ابن القيم : هذه الكيفية لا ينتفع بها من أنكرها ، ولا من سخر منها، ولا من شك فيها ، أو فعلها مجرباً غير معتقد . وإذا كان فى الطبيعة «خواص» لا يعرف الأطباء عللها، بل هى عندهم خارجة عن القياس، وإنما تفعل بالخاصية ، فما الذى تنكر جهلتهم من الخواص الشرعية ؟ هذا مع أن فى المعالجة بالاغتسال مناسبة لا تأباها العقول الصحيحة ، فهذا ترياق سم الحية يؤخذ من لحمها ، وهذا علاج النفس الغضبية ، توضع اليد على البدن الغضبان فيسكن . فكان أثر ذلك العين كشعلة نار وقعت على جسد، ففى الاغتسال إطفاء لتلك الشعلة ، ثم لما كانت هذه الكيفية الخبيثة تظهر فى المواضع الرقيقة من الجسد لشدة النفوذ فيها ، ولا شىء أرق من المغابن ، فكان فى غسلها إبطال لعملها ، ولا سيما أن للأرواح الشيطانية فى تلك المواضع اختصاصاً ، وفيه أيضاً وصول أثر الغسل إلى القلب من أرق

المواضع وأسرعها نفاذاً فتطفىء تلك النار التى أثارتها العين بهذا الماء .

الثالث : هذا الغسل ينفع بعد استحكام النظرة ، فأما عند الإصابة وقبل الاستحكام فقد أرشد الشارع إلى ما يدفعه بقوله فى قصة سهل بن حنيف المذكورة كما مضى : **«أَلَا بَرَّكْتَ عَلَيْهِ؟»** ، وفى رواية ابن ماجه : **«فَلْيَدْعُ بِالْبَرَكَةِ»** ، ومثله عند ابن السنى من حديث : عامر بن ربيعة . وأخرج البزار وابن السنى من حديث أنس رفعه : **«مَنْ رَأَى شَيْئاً فَأَعْجَبَهُ فَقَالَ : مَا شَاءَ اللهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ لَمْ يَضُرَّهُ»** .

وفى الحديث من الفوائد أيضاً : أن العائن إذا عرف يقضى عليه بالاغتسال ، وأن الاغتسال من النشرة النافعة . وأن العين تكون من الإعجاب ولو بغير حسد، ولو من الرجل المحب، ومن الرجل الصالح. وأن الذى يعجبه الشئ ينبغى أن يبادر إلى الدعاء للذى يعجبه بالبركة ، ويكون ذلك رقية منه ، وأن الإصابة بالعين تقتل .

وقد اختلف فى جريان القصاص بذلك ، فقال القرطبى : لو أتلف العائن شيئاً ضمنه ، ولو قتل فعليه القصاص أو الدية إذا تكرر ذلك منه بحيث يصير عادة ، وهو فى ذلك كالساحر عند من لا يقتله كفراً. انتهى .

ولم يتعرض الشافعية للقصاص فى ذلك ، بل منعوه وقالوا : إنه لا يقتل غالباً ، ولا يعد مهلكاً ، وقال النووى فى «الروضة» : ولا دية فيه ولا كفارة ، لأن الحكم إنما يترتب على منضبط عام دون ما يختص ببعض الناس فى بعض الأحوال مما لا انضباط له ، كيف ولم يقع منه فعل أصلاً ، وإنما غايته حسد وتمن لزوال نعمة . وأيضاً فالذى ينشأ عن الإصابة بالعين حصول مكروه لذلك الشخص، ولا يتعين ذلك

المكروه فى زوال الحياة ، فقد يحصل له مكروه بغير ذلك من أثر العين .. ا. هـ .

ولا يعكر على ذلك إلا الحكم بقتل الساحر، فإنه فى معناه ، والفرق بينهما فيه عسر ، ونقل ابن بطال عن بعض أهل العلم : فإنه ينبغى للإمام منع العائن إذا عرف بذلك من مداخلة الناس، وأن يلزم بيته ، فإن كان فقيراً رزقه مايقوم به ؛ فإن ضرره أشد من ضرر المجذوم الذى أمر عمر ـ رضى الله عنه ـ بمنعه من مخالطة الناس، وأشدُّ من ضرر الثوم الذى منع الشارع آكله من حضور الجماعة . قال النووى : وهذا القول صحيح متعين لا يعرف عن غيره تصريح بخلافه . (١٠/٢٠٣ ـ ٢٠٥) .

فـائدة *

وردَ فى « سورة الفَلَق » من كتاب الله تعالى الاستعاذةُ من شرورٍ أربعة، آخرها هو الشرّ الرابع : شر الحاسد إذا حسد، وقد دلّ القرآنُ والسنة على أنّ نفسَ حَسَدِ الحاسدِ يُؤذى المحسود ، فنفس حسده يتصل بالمحسود من نفسه وعينه ، وإن لم يؤذه بيده ولا لسانه ، فإن الله تعالى قال : ﴿وَمِنْ شَرِّ حاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ فحققّ الشّرَّ منه عند صدور الحسد، والقرآنُ ليس فيه لفظةٌ مهملةٌ، ومعلومٌ أن الحاسد لا يُسمّى حاسداً إلّا إذا قام به الحسدُ، كالضاربِ ، والشاتم ، والقاتل، ونحو ذلك ، ولكن قد يكون الرجلُ فى طبعه الحسد وهو غافل عن المحسود لاهٍ عنه ، فإذا خطر على ذكره وقلبه انبعثت نارُ الحسد من قلبه إليه وتوجهت إليه سهامُ الحسد من قبله فيتأذى المحسود بمجرد ذلك ، فإن لم يستعذ بالله ويتحصن به ، ويكون له أوراد من الأذكار والدعوات والتوجه إلى الله والإقبال عليه بحيث يدفع عنه من شره بمقدار توجهه وإقباله على الله وإلا ناله شر الحاسد ولابُد فقوله تعالى : ﴿إِذا حَسَدَ﴾ بيانٌ لأن شره إنما يتحقق إذا حصل منه الحسد بالفعل . وقد ورد فى حديث أبى سعيد الصحيح[1] رقية جبريل النبى ﷺ وفيها : « بسم الله أرقيك من كل شيء يُؤذيك

---

* من كتاب بدائع الفوائد للعلامة ابن قيم الجوزية وذلك لتمام الفائدة وعموم النفع [الناشر] .

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٦) والترمذى (٩٧٢) .

من شر كل نفس أو عين حاسد الله يشفيك» ، فهذا فيه الاستعاذةُ من شر عين الحاسد .

ومعلومٌ أن عينه لا تؤثر بمجردها ، إذ لو نظر إليه نظر لاهٍ ساهٍ عنه كما ينظر إلى الأرض والجبل وغيره لم يؤثر فيه شيئاً ، وإنما إذا نظر إليه نظر من قد تكيفت نفسه الخبيثة وانسمّت واحتدت فصارت نفساً غضبية حاسدة أثرت بها تلك النظرة فأثرت فى المحسود تأثيراً بحسب صفة ضعفه وقوة نفس الحاسد ، فربما أعطبه وأهلكه بمنزلة من فوَّق[٢] سهماً نحو رجلٍ عُريان فأصاب منه مقتلاً وربما صرعه وأمرضه .

والتجارب عند الخاصة والعامة بهذا أكثر من أن تُذكر .

وهذه العين إنما تأثيرها بواسطة النفس الخبيثة ، وهى فى ذلك بمنزلة الحية التى إنما يُؤثر سمها إذا عضت واحتدت ، فإنها تتكيف بكيفية الغضب والخبث فتحدث فيها تلك الكيفية السم ، فتؤثر فى الملسوع وربما قويت تلك الكيفية واشتدت فى نوع منها حتى تؤثر بمجرد نظرة فتطمس البصر وتسقط الحبل كما ذكره النبى ﷺ فى الأبتر وذى الطُّفيتين منها ، وقال : «اقتلوهما فإنهما يطمسان البصر ويُسقطان الحبل»[٣] .

فإذا كان هذا فى الحيات فما الظن فى النفوس الشريرة الغضبية الحاسدة إذا تكيفت بكيفيتها الغضبية وانسمَّت وتوجهت إلى المحسود

---

(٢) سدد وصوب .

(٣) رواه البخارى (٦/٢٥٢) ومسلم (٢٢٣٢) ومالك (٢/٩٧٦) عن عائشة .

بكيفيتها ، فلله كم من قتيل ؟ وكم من سليب ؟ وكم من مُعافى عاد مُضنىً[٤] على فراشه يقول طبيبه : لاأعلم داءَه ماهو ! فصدق ، ليس هذا الداء من علم الطبائع ، هذا من علم الأرواح وصفاتها وكيفياتها ومعرفة تأثيراتها فى الأجسام والطبائع وانفعال الأجسام عنها ، وهذا علمٌ لايعرفه إلا خواص الناس .

والمحجوبون منكرون له ولا يعلم تأثير ذلك وارتباطه بالطبيعة وانفعالها عنه إلا من له نصيب من ذوقه ،وهل الأجسام إلا كالخشب المُلقى ، وهل الانفعالُ والتأثر وحدوث مايحدث عنها من الأفعال العجيبة والآثار الغريبة إلا من الأرواح ، والأجسام آلتها بمنزلة آلة الصانع فالصنعة فى الحقيقة له ، والآلات وسائط فى وصول أثره إلى الصنع ، ومن له أدنى فطنة ، وتأمل أحوال العالم ولطفت روحه ، وشاهدت أحوال الأرواح وتأثيراتها وتحريكها الأجسام وانفعالها عنها ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم خالق الأسباب والمسببات ، رأى عجائب فى الكون وآياتٍ دالة على وحدانية الله وعظمته وربوبيته وأن ثم عالماً آخر تجرى عليه أحكامٌ أخر تشهد آثارها وأسبابها غيب عن الأبصار .

فتبارك الله ربُّ العالمين وأحسن الخالقين الذى أتقن ماصنع وأحسن كل شيء خلقه .

ولا نسبة لعالم الأجسام إلى عالم الأرواح بل هو أعظم وأوسع وعجائبه أبهر وآياته أعجبُ ، وتأمل هذا الهيكل الإنسانى إذا فارقته

---

(٤) مريض .

الروح كيف يصير بمنزلة الخشبة أو القطعة من اللحم ، فأين ذهبت تلك العلوم والمعارف والعقل، وتلك الصنائع الغريبة وتلك الأفعال العجيبة وتلك الأفكار والتدبيرات ؟ كيف ذهبت كلها مع الروح وبقى الهيكل سواء هو والتراب ؟ وهل يخاطبك من الإنسان ، أو يراك أو يحبك أو يُواليك ، أو يعاديك ، ويخف عليك أو يُثقل ويُؤنسك ويوحشك إلا ذلك الأمر الذى وراء الهيكل المشاهد بالبصر فرُب رجلٍ عظيمُ الهيولى(٢) كبير الجثة خفبف على قلبك حلو عندك ، وآخر لطيفُ الخلقة صغير الجثة ، أثقلُ على قلبك من جبل، وما ذاك إلا للطافة روح ذاك وخفتها وحلاوتها وكثافة هذا وغلظ روحه ومرارتها، وبالجملة فالعلق والوصل(٣) التى بين الأشخاص والمنافرات والبعد، إنما هى للأرواح أصلاً، والأشباح تبعاً .

(٥) مادة الشيء التى يصنع منها .

(٦) أى الروابط والصلات .

الفرق بين العائن والحاسد*

والعائنُ والحاسد يشتركان فى شىء ، ويفترقان فى شىء :

فيشتركان فى أن كل واحد منهما تتكيف نفسه ، وتتوجه نحو من يريد أذاه .

فالعائن : تتكيف نفسه عند مقابلة المعين ومعاينته .

والحاسد : يحصل له ذلك عند غيبة المحسود وحضوره أيضاً .

ويفترقان فى أن العائن قد يصيب من لا يحسده ، من جماد أو حيوان ، أو زرع أو مال ، وإن كان لا يكاد ينفك من حسد صاحبه ، وربما أصابت عينه نفسه . فإن رؤيته للشىء رؤية تعجب وتحديق، مع تكيف نفسه بتلك الكيفية : تؤثر فى المعين .

وقد قال غير واحد من المفسرين فى قوله تعالى : ﴿**وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ**﴾[1] : إنه الإصابةُ بالعين ، أرادوا أن يصيبوا بها رسول الله ﷺ ، فنظر إليه قوم من العائنين ، وقالوا : ما رأينا مثله ، ولا مثل حجته . وكان طائفة منهم تمر به الناقة والبقرة السمينة فيعينها ، ثم يقول لخادمه : خُذ المكتل والدرهم وائتنا بشىء من لحمها، فما تبرح حتى تقع ، فتنحر[2] .

* من كتاب بدائع الفوائد لابن القيم .

(١) سورة القلم : ٥١ .

(٢) انظر « الدر المنثور » (٢٥٨/٦) و « زاد المسير » (٣٤٤/٨) وقال ابن=

وقال الكلبى : كان رجل من العرب يمكث يومين أو ثلاثة لا يأكل ، ثم يرفع جانب خبائه[٣] ، فتمر به الإبل ، فيقول : لم أر كاليوم إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه ، فما تذهب إلا قليلاً حتى يسقط منها طائفة ، فسأل الكفار هذا الرجل أن يصيب رسول الله ﷺ بالعين ، ويفعل به كفعله فى غيره . فعصم الله رسوله وحفظه . وأنزل عليه : ﴿**وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ**﴾ هذا قولُ طائفة[٤] .

وقالت طائفة أخرى ، منهم ابنُ قُتيبة : ليس المراد : أنهم يصيبونك بالعين ، كما يُصيب العائنُ بعينه مايُعجبه ، وإنما أراد : أنهم ينظرون إليك إذا قرأت القرآن نظراً شديداً بالعداوة والبغضاء ، يكاد يسقطك . قال الزجاج : يعنى من شدة العداوة يكادون بنظرهم نظر البغضاء أن يصرعوك . وهذا مُستعمل فى الكلام . يقول القائل : نظر إلى نظراً كاد يصرعنى .

قال : ويدل على صحة هذا المعنى : أنه قرن هذا النظر بسماع القرآن ، وهم كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهية ، فيحدون إليه النظر بالبغضاء .

قلت : النظرُ الذى يؤثر فى المنظور : قد يكون سببه شدة العداوة

=كثير : وفى هذه الآية دليل على أن العين إصابتها وتأثيرها حق بأمر الله عز وجل .

(٣) هو بيت من وبر أو صوف ؛ « المصباح المنير » (١٦٣/١) .

(٤) أسباب النزول (صفحة ٢٤٩) للواحدى .

والحسد فيؤثر نظره فيه ، كما تؤثر نفسه بالحسد، ويقوى تأثير النفس عند المقابلة . فإن العدو إذا غاب عن عدوه فقد يشغل نفسه عنه ، فإذا عاينه قُبُلاً اجتمعت الهمة عليه ، وتوجهت النفس بكليتها إليه . فيتأثر بنظره ، حتى إن من الناس من يسقط، ومنهم من يُحم ، ومنهم من يحمل إلى بيته . وقد شاهد الناس من ذلك كثيراً .

وقد يكون سببهُ الإعجاب، وهو الذى يسمونه : بإصابة العين . وهو أن الناظر يرى الشيء رُؤية إعجابٍ به أو استعظام ، فتتكيف روحه بكيفية خاصة تؤثر فى المعين ، وهذا هو الذى يعرفه الناس من رُؤية المعين، فإنهم يستحسنون الشيء ويعجبون منه ، فيصاب بذلك .

قال عبد الرزاق : عن معمر عن هشام بن منبه قال : هذا ما حدثنا أبو هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «العين حق ، ونهى عن الوشم»(٥) .

وروى سُفيان عن عمرو بن دينار عن عروة بن عامر عن عُبيد بن رفاعة أن أسماء بنت عُميس قالت : يارسول الله ، إن بنى جعفر تصيبهم العين ، أفنسترقى لهم؟ قال : «نعم . فلو كان شيء يسبق القضاء لسبقته العين»(٦) .

(٥) أخرجه عبد الرزاق فى « مصنفه » (١٩٧٧٨) والبخارى (١٠/١٧٣) والبغوى فى « شرح السنة » (٣١٩٠) .
(٦) حديث حسن أخرجه أحمد (٦/٤٣٨) والترمذى (٢/٦) وابن ماجه (٢/٣٥٦) .

فالكُفار كانوا ينظرون إليه نظر حاسد شديد العداوة ؛ فهو نظر يكاد يزلقه لولا حفظ الله وعصمته، فهذا أشد من نظر العائن، بل هو جنس من نظر العائن فمن قال: إنه من الإصابة بالعين أراد هذا المعنى، ومن قال : ليس به، أراد أن نظرهم لم يكن نظر استحسان وإعجاب بالقرآن حق .

وقد روى الترمذى من حديث أبى سعيد «أن النبى ﷺ كان يتعوذ من عين الإنسان» فلولا أن العين شرٌّ لم يتعوذ منها .

وفى الترمذى من حديث على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير حدثنى حيَّة بن حابس التميمى حدثنى أبى : أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : «لا شيء فى الهام ، والعين حقٌّ» .

وفيه أيضاً من حديث وُهيب عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال : «كان رسول الله ﷺ يقول : لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين ، وإذا استغسلتم فاغسلوا» وفى الباب عن عبد الله بن عمرو ، وهذا حديث صحيح .

والمقصود: أن العائن حاسدٌ خاصٌّ، وهو أضرُّ من الحاسد ، ولهذا ــ والله أعلم ــ إنما جاء فى السورة ذكرُ الحاسد دون العائن، لأنه أعمُّ، فكل عائن حاسد ولا بُدَّ، وليس كل حاسدٍ عائناً ، فإذا استعاذ من شر الحاسد دخل فيه العائنُ ، وهذا من شمول القرآن وإعجازه وبلاغته .

وأصلُ الحسدَ : هو بغض نعمة الله على المحسود، وتمنى زوالها .

فالحاسد عدو النعم ، وهذا الشر هو من نفسه وطبعها ، ليس هو

شيئاً اكتسبه من غيرها ، بل هو من خُبثها وشرها ، بخلاف السحر ، فإنه إنما يكون باكتساب أمورٍ أخرى ، واستعانة بالأرواح الشيطانية ، فلهذا ــ والله أعلم ــ قرن فى السورة بين شر الحاسد وشر الساحر ، لأن الاستعاذة من شر هذين تعم كل شر يأتى من شياطين الإنس والجن ، فالحسد من شياطين الإنس والجن ، والسحر من النوعين !

وبقى قسم ينفرد به شياطين الجن ، وهو الوسوسة فى القلب ، فذكره فى السورة الأخرى[7] ، كما سيأتى الكلام عليها إن شاء الله .

فالحاسد والساحر يؤذيان المحسود والمسحور بلا عملٍ منه ، بل هو أذًى من أمر خارج عنه ، ففرق بينهما فى الذكر فى سورة الفلق .

والوسواسُ إنما يؤذى العبد من داخل بواسطة مساكنته له ، وقبوله منه ، ولهذا يُعاقب العبد على الشر الذى يُؤذيه به الشيطانُ من الوساوس التى تقترن بها الأفعالُ ، والعزمُ الجازم ، لأن ذلك بسعيه وإرادته ، بخلاف شر الحاسد والساحر فإنه لا يُعاقب عليه ، إذ لا يُضاف إلى كسبه ولا إرادته ، فلهذا أفرد شرَّ الشيطان فى سورة ، وقرن بين شر الساحر والحاسد فى سورة .

وكثيراً مايجتمع فى القرآن الحسد والسحر للمناسبة .

ولهذا كان اليهود أسحر الناس وأحسدهم ، فإنهم لشدة خُبثهم : فيهم من السحر والحسد ماليس فى غيرهم .

---

(٧) أى سورة « الناس » .

وقد وصفهم الله فى كتابه بهذا وهذا ، فقال : ﴿**واتبعُوا ما تتلوا الشياطينُ على مُلك سُليمان وما كفر سُلَيمانُ. ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر. وما أُنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت . وما يعلمان من أحد حتى يقولا : إنما نحن فتنة ، فلا تكفر. فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه . وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله ، ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم. ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خَلاقٍ ، ولبئسما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون**﴾(٨) .

والكلامُ على أسرار هذه الآية وأحكامها وما تضمنته من القواعد والرد على من أنكر السحر ، وما تضمنته من الفُرقان بين السحر وبين المعجزات الذى أنكره من أنكر السحر خشية الالتباس ـ وقد تضمنت الآية أعظم الفرقان بينهما ـ فى موضع غير هذا .

إذ المقصودُ على أسرار هاتين السورتين وشدة حاجة الخلق إليهما ، وأنه لا يقوم غيرهما مقامهما .

وأما وصفهم بالحسد فكثير فى القرآن ، كقوله تعالى : ﴿**أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله**﴾(٩) وفى قوله : ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِن أهلِ الكِتَابِ لَو يَرُدُّونَكم مِن بَعدِ إيمانِكم كُفَّاراً حَسَدَاً من عندِ أنفُسِهِمْ من بَعدِ مَا تَبَيَّنَ لَهم الحقُّ**﴾(١٠).

---

(٨) سورة البقرة : ١٠٢ .

(٩) سورة النساء : ٥٥ .

(١٠) سورة البقرة : ١٠٩ .

والشيطان يُقارنُ الساحرَ والحاسدَ، ويُحادثهما ويصاحبهما، ولكن الحاسد تعينه الشياطين بلا استدعاءٍ منه للشيطان ، لأن الحاسد شبيه بإبليس ، وهو فى الحقيقة من أتباعه ، لأنه يطلب مايُحبه الشيطان من فساد الناس ، وزوال نعم الله عنهم ، كما أن إبليس حسدَ آدم لشرفه وفضلهِ ، وأبى أن يسجد له حسداً .

فالحاسد من جُند إبليس ، وأما الساحر فهو يطلب من الشيطان أن يُعينه ويستعينه . وربما يعبدُه من دون الله ، حتى يقضى له حاجته ، وربما يسجد له .

وفى كتب السحر والسر المكتوم من هذا عجائب ، ولهذا كلما كان الساحرُ أكفر وأخبث وأشد معاداة لله ولرسوله ولعباده المؤمنين كان سحرهُ أقوى وأنفذ . وكان سحر عُباد الأصنام أقوى من سحر أهل الكتاب ، وسحر اليهود أقوى من سحر المنتسبين إلى الإسلام ، وهم الذين سحروا رسولَ الله ﷺ .

وفى «الموطأ» عن كعب قال : «كلمات أحفظهن من التوراة ، لولاها لجعلتنى يهودُ حماراً: لولاها لجعلتنى يهود حمارًا : أعوذ بوجه الله العظيم ، الذى لاشىء أعظم منه ، وبكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر ، وبأسماء الله الحسنى ، ماعلمتُ منها وما لم أعلم : من شر ماخلق، وذرأ ، وبرأ» .

والمقصودُ : أن الساحر والحاسد كل منهما قصدُه الشر ، لكن الحاسد بطبعه ونفسه وبغضه للمحسود ، والشيطان يقترن به ويعينه ، ويُزين له حسده ، ويأمره بموجبه ، والساحر بعلمه وكسبه ، وشركه ، واستعانته بالشياطين .

والنوع الثانى : مَن يعينه الشيطان ، وإن لم يستعن هو به ، وهو الحاسدُ. لأنه نائبهُ وخليفتهُ، لأن كليهما عدوٌّ نعم الله ، ومنغصها على عباده .

الحاسد من شياطين الإنس*

وقوله : ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ يعم الحاسد من الجن والإنس ، فإن الشيطان وحزبه يحسدون المؤمنين على ماآتاهم الله من فضله ، كما حسد إبليس أبانا آدم ، وهو عدو لذريته ، كما قال تعالى : ﴿إنّ الشَّيْطَانَ لكُم عَدُوٌّ فَاتخِذوهُ عدُوًّا﴾[1] .

ولكن الوسواس أخص بشياطين الجن ، والحسد أخص بشياطين الإنس ، والوسواس يعمهما ، كما سيأتى بيانُهما ، والحسد يعمهما أيضاً ، فكلا الشيطانين حاسد مُوَسوس . فالاستعاذة من كل شرٍّ فى العالم .

وتضمنت شروراً أربعة يُستعاذ منها : شراً عاماً . وهو شر ماخلق ، وشر الغاسق إذا وقب ، فهذان نوعان .

ثم ذكر شرَّ الساحر والحاسد ، وهما نوعان أيضاً ، لأنهما من شر النفس الشريرة ، وأحدهما يستعين بالشيطان ويعبدهُ ، وهو الساحر ، وقلما يتأتى الحسد بدون نوع عبادة للشيطان ، وتقرب إليه : إما بذبح باسمه ، أو بذبح يقصد به هو ، فيكون ذبحاً لغير الله ، وبغير ذلك من أنواع الشرك والفسوق .

---

* من كتاب بدائع الفوائد لابن القيم .

(١) سورة : فاطر ، ٦ .

والساحر وإن لم يسم هذا عبادة للشيطان، فهو عبادة له ، وإن سماه بما سماه به، فإن الشرك والكفر هو شرك وكفر لحقيقته ومعناه ، لا لاسمه ولفظه .

فمن سجد لمخلوق ، وقال: ليس هذا بسجود له، هذا خضوع وتقبيل الأرض بالجبهة ، كما أقبلها بالنعم ، أو هذا إكرام : لم يخرج بهذه الألفاظ عن كونه سجوداً لغير الله فليُسمه بما يشاء .

وكذلك من ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به ، وتقرب إليه بما يُحب ، فقد عبدهُ ، وإن لم يُسَمِّ ذلك عبادةً ، بل يُسمِّيه استخداماً ، وصدَق ، هو استخدام من الشيطان له ، فيصيرُ من خدم الشيطان وعابديه ، وبذلك يخدمه الشيطان ، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادةٍ ، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده ، كما يفعل هو به!

والمقصودُ : أن هذا عبادةٌ منه للشيطان ، وإنما سماه استخداماً ، قال تعالى : **﴿ألم أعهَد إليكُم يا بَني آدَمَ أن لا تعبُدُوا الشَّيطانَ إنَّهُ لَكُم عَدُوٌّ مُبينٌ﴾**[2] ، وقال تعالى : **﴿وَيَومَ يَحشُرُهُم جَميعاً ثُمَّ يَقُولُ للملائِكَة : أهؤُلَاءِ إياكُم كانُوا يَعبدُونَ؟ قَالُوا : سُبحَانَكَ ، أنتَ وَلِيُّنا مِن دُونِهِم ، بَل كَانُوا يَعبدُونَ الجِنَّ ، أكثَرهُمُ بِهِم مُؤمِنُونَ﴾**[3] .

فهؤلاء وأشباهُهم عبادُ الجنّ والشياطين ، وهم أولياؤهم فى الدنيا والآخرة . ولبئس المولى ، ولبئس العشيرُ، فهذا أحدُ النوعين .

---

(٢) سورة يس : ٦٠ .
(٣) سورة سبأ : ٤٠ ، ٤١

مــراتب الحســـد (*)

وتأمل تقييده سبحانه شر الحاسد بقوله : ﴿إِذَا حَسَدَ﴾ لأن الرجل قد يكون عنده حسد، ولكن يخفيه ، ولا يرتب عليه أذى بوجه ما، لا بقلبه ، ولا بلسانه ، ولا بيده، بل يجد فى قلبه شيئاً من ذلك ولا يعاملُ أخاه إلا بما يُحبُّ الله ، فهذا لا يكاد يخلو منه أحدٌ إلا من عصمه الله .

وقيل للحسن البصرى : أيحسدُ المؤمنُ ؟ قال : ماأنساكَ لإخوة يوسف ! .

لكن الفرق بين القوة التى فى قلبه من ذلك وهو لا يطيعها ولا يأتمر بها، بل يعصيها طاعة لله وخوفاً وحياءً منه ، وإجلالاً له ، أن يكره نعمهُ على عباده ، فيرى ذلك مخالفة لله وبغضاً لما يُحب الله، ومحبةً لما يبغضه ، فهو يجاهد نفسه على دفع ذلك ، ويُلزمها بالدعاء للمحسود، وتمنى زيادة الخير له ، بخلاف ماإذا حقق ذلك وحسده ورتب على حسده مقتضاهُ من الأذى بالقلب، واللسان والجوارح .

فهذا الحسد المذموم . هذا كله حسدُ تمنى الزوال .

وللحسد ثلاث مراتب : إحداها هذه :

---

* من بدائع الفوائد لابن القيم .

ضعفه ، أو شتات قلبه عن الله ، أو قلة دينه ، فهو يتمنى دوام ما هو فيه من نقص وعيب، فهذا حسد على شيء مُقدر .

والأول حسدٌ على شيء مُحقق ، وكلاهما حاسدٌ، عدو نعمة الله ، وعدو عباده ، وممقوت عند الله تعالى ، وعند الناس ، ولا يسود أبداً، ولا يواسى فإن الناس لا يُسودون عليهم إلا من يريد الإحسان إليهم ، فأما عدو نعمة الله عليهم فلا يسودونه باختيارهم أبداً إلا قهراً يعدونه من البلاء والمصائب التى ابتلاهم الله بها ، فهم يبغضونه وهو يبغضهم .

والحسد الثالث : حسد الغبطة ، وهو تمنى أن يكون له مثل حال المحسود من غير أن تزول النعمةُ عنه ، فهذا لا بأس به ، ولا يُعاب صاحبه ، بل هذا قريبٌ من المنافسة .

وقد قال تعالى : ﴿**وفى ذلِكَ فَلْيَتَنافَسِ الْمُتَنافِسُونَ**﴾[1] وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : «لا حسد إلا فى اثنتين : رجل آتاه الله مالاً ، وسلطه على هلكته فى الحق، ورجل آتاه الله الحكمة ، فهو يقضى بها ويعلمها الناس» .

فهذا حسد غبطة ، الحامل لصاحبه عليه كبر نفسه ، وحب خصال الخير ، والتشبه بأهلها ، والدخول فى جملتهم ، وأن يكون من سابقيهم وعليتهم ، ومصليهم لا من فساكلهم[2]، فتحدث له من هذه

---

(١) سورة المطففين : ٢٦ .

(٢) مفردها (فُسكل) وهو الفرس الذى يجيء فى حلبة السباق آخر الخيل ، والمصلى: الذى يجيء منها تلو السابق .

الهمة المنافسة والمسابقة والمسارعة ، مع محبته لمن يغبطه ، وتمنى دوام نعمة الله عليه، فهذا لا يدخل فى الآية بوجهٍ ما.

فهذه السورةُ من أكبر أدوية الحسد، فإنها تتضمن التوكل على الله، والالتجاء إليه، والاستعاذة به من شر حاسد النعمة، فهو مستعيذ بولى النعم ومُوليها، كأنه يقول : يا من أولانى نعمته وأسداها إلى أنا عائذ بك من شر من يريد أن يستلبها منى، ويزيلها عنى .

وهو حسبُ من توكل عليه ، وكافى من لجأ إليه ، وهو الذى يُؤمنُ خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير، فمن تولاه واستنصر به ، وتوكل عليه وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه ، ومن خافه واتقاه أمنه مما يخاف ويحذر ، وجلب إليه كل ما يحتاج إليه من المنافع ﴿**وَمن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقهُ من حيثُ لا يَحتسبُ. ومن يتوكل على الله فهو حسبه**﴾[٣] .

فلا تستبطىء نصره ورزقه وعافيته ، فإن الله بالغُ أمره ، وقد جعل الله لكل شىء قدراً، لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

ومن لم يخفه أخافه من كل شىء ، وما خاف أحدٌ غير الله إلا لنقص خوفه من الله، قال تعالى: ﴿**فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم. إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به**

---

(٣) سورة الطلاق : ٢ ، ٣ .

مشركون﴾[٤] وقال : ﴿**إنما ذلِكُم الشَّيطانُ يُخوِّفُ أولِياءَهُ. فلا تخافوهم وخافُون إن كُنتمُ مُؤْمِنينَ**﴾[٥] أى : يُخوفكم بأوليائه ، ويعظمهم فى صدوكم . فلا تخافوهم ، وأفردونى بالمخافة أكفكم إياهم .

---

(٤) سورة النحل : ٩٨ ــ ١٠٠ .
(٥) سورة ال عمران : ١٧٥ .

الوقـــاية من شـــر الحاســـد

ويندفع شر الحاسد عن المحسود بعشرة أسباب.:

أحدها : التعوذ بالله من شره ، والتحصن به واللجأ إليه .

وهو المقصود بهذه السورة ، والله تعالى سميعٌ لاستعاذته ، عليمٌ بما يستعيذ منه ، والسمع هنا المراد به : سمع الإجابة ، لا السمع العام ، فهو مثل قوله : « سمع اللهُ لمن حمده » وقول الخليل عليه السلام ﴿**إنَّ ربِّى لسميعُ الدُّعاءِ**﴾[1] ومرة يقرنهُ بالعلم ، ومرة بالبصر ، لاقتضاء حال المستعيذ ذلك، فإنه يستعيذ به من عدو يعلم أن الله يراه ، ويعلمُ كيده وشره .

فأخبر الله تعالى هذا المستعيذ أنه سميع لاستعاذته ، أى مجيب، عليمٌ بكيد عدوه ، يراه وينصره ، لينبسط أمل المستعيذ، ويقبل بقلبه على الدعاء .

وتأمل حكمة القرآن، كيف جاء فى الاستعاذة من الشيطان الذى نعلم وُجوده ولا نراه بلفظ : ﴿**السَّمِيعُ العَلِيمُ**﴾[2] فى الأعراف وحٓمٓ السجدة . وجاءت الاستعاذة من شر الإنس الذين يُؤنسون ويُرون بالأبصار بلفظ : ﴿**السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ فى سورة حٓمٓ المؤمن،

---

(١) سورة إبراهيم : ٣٩ .

(٢) سورة فصلت : ٣٦ .

فقال : ﴿**إنَّ الذينَ يُجَادِلونَ فى آياتِ الله بِغَيرِ سُلطانٍ أتَاهُم ، إن فى صُدُورِهِم إلّا كِبرٌ مَا هُم بِبَالِغِيهِ، فاستَعِذ بالله إنَّه هُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ ، لأن أفعال هؤلاء أفعال معاينة تُرى بالبصر، وأما نزغ الشيطان فوساوسُ، وخطراتٌ يُلقيها فى القلب، يتعلق بها العلمُ ، فأمر بالاستعاذة بالسميع العليم فيها، وأمر بالاستعاذة بالسميع البصير فى باب ما يرى بالبصر، ويدرك بالرؤية. والله أعلم .

السبب الثانى : تقوى الله ، وحفظُه عند أمره ونهيه .

فمن اتقى الله تولى الله حفظه ، ولم يكله إلى غيره ، قال تعالى : ﴿**وَإن تصبروا وتَتَّقُوا لا يَضرُكُمْ كَيدُهم شَيئاً**﴾ وقال النبىُّ ﷺ لعبد الله بن عباس : «احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك» ، فمن حفظ الله حفظه الله ، ووجده أمامه أينما توجه ، ومن كان الله حافظه وأمامه فممن يخاف؟ ومن يحذرُ؟

السبب الثالث : الصبر على عدوه ، وأن لا يقاتله ولا يشكوه ، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلاً .

فما نُصِر على حاسده وعدوه بمثل الصبر عليه ، والتوكل على الله ولا يستطل تأخيره وبغيه ، فإنه كلما بغى عليه كان بغيهُ سهاماً يرميها من نفسه إلى نفسه .

ولو رأى المبغى عليه ذلك لسره بغيه عليه ، ولكن لضعف بصيرته لا يرى إلا صورة البغى ، دون آخره ومآله ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَمَن عاقَبَ بِمثِلِ ما عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيهِ لَيَنصُرَنَّه الله** ﴾[3]

---

(٣) سورة الحج : ٦٠ .

فإذا كان الله قد ضمن له النصر ، مع أنه قد استوفى حقه أولاً ، فكيف بمن لم يستوف شيئاً من حقه ، بل بغى عليه وهو صابر ؟ وما من الذنوب ذنب أسرع عقوبة من البغى وقطيعة الرحم ، وقد سبقت سنة الله : أنه لو بغى جبل على جبل لجعل الباغى منهما دكاً !!

السبب الرابع : التوكل على الله .

فمن يتوكل على الله فهو حسبه ، والتوكل من أقوى الأسباب التى يدفع بها العبد مالا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم ، وهو من أقوى الأسباب فى ذلك ، فإن الله حسبه ، أى : كافيه ، ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه ، ولا يضره إلا أذى لابد منه ، كالحر والبرد والجوع والعطش ، وأما أن يضره بما يبلغ منه مراده فلا يكون أبداً ، وفرق بين الأذى الذى هو فى الظاهر إيذاء له ، وهو فى الحقيقة إحسان إليه وإضرار بنفسه ، وبين الضرر الذى يتشفى به منه .

قال بعض السلف : جعل الله لكل عمل جزاء من جنسه ، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته لعبده ، فقال : ﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾[٤] ولم يقل : نؤته كذا وكذا من الأجر ، كما قال فى الأعمال ، بل جعل نفسه سبحانه كافى عبده المتوكل عليه وحسبه ، وواقيه ، فلو توكل العبد على الله حق توكله ، وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له ربه مخرجاً من ذلك ، وكفاه ونصره .

---

(٤) سورة الطلاق : ٣ .

وقد ذكرنا حقيقة التوكل وفوائده ، وعظم منفعته ، وشدة حاجة العبد إليه فى كتاب « الفتح القدسى » وذكرنا هناك فساد من جعله من المقامات المعلولة ، وأنه من مقامات العوام .

وأبطلنا قوله من وجوه كثيرة . وبينا أنه من أجل مقامات العارفين ، وأنه كلما علا مقام العبد كانت حاجته إلى التوكل أعظم وأشد، وأنه على قدر إيمان العبد يكون توكله .

وإنما المقصود هنا ذكر الأسباب التى يندفع بها شر الحاسد والعائن ، والساحر والباغى !

السبب الخامس : فراغ القلب من الاشتغال به والفكر فيه .

وأن يقصد أن يمحوه من باله كلما خطر له ، فلا يلتفت إليه ولا يخافه ، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه .

وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره ، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه ، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه ، بل انعزل عنه لم يقدر عليه ، فإذا تماسكا وتعلق كل منهما بصاحبه، حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا علق روحه وشبثها به ، وروح الحاسد الباغى متعلقة به يقظة ومناماً ، لا يفتر عنه ، وهو يتمنى أن يتماسك الروحان ويتشبثا ، فإذا تعلقت كل روح منهما بالأخرى عدم القرار ، ودام الشر ، حتى يهلك أحدهما ، فإذا جبذ(٥) روحه منه ، وصانها عن الفكر فيه والتعلق به ، وأن لا

---

(٥) أى : جذب .

يخطره ببال ، فإذا خطر بباله بادر إلى محو ذلك الخاطر ، والاشتغال بما هو أنفع له وأولى به ، بقى الحاسد الباغى يأكل بعضه بعضاً . فإن الحسد كالنار ، فإذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضاً .

وهذا باب عظيم النفع لا يلقاه إلا أصحاب النفوس الشريفة والهمم العلية ، وبين الكيس الفطن وبينه حتى يذوق حلاوته وطيبه ونعيمه كأنه يرى من أعظم عذاب القلب والروح اشتغاله بعدوه ، وتعلق روحه به ، ولا يرى شيئاً آلم لروحه من ذلك ، ولا يصدق بهذا إلا النفوس المطمئنة الوادعة اللينة ، التى رضيت بوكالة الله لها ، وعلمت أن نصره لها خير من انتصارها هى لنفسها ، فوثقت بالله ، وسكنت إليه ، واطمأنت به ، وعلمت أن ضمانه حق ، ووعده صدق ، وأنه لا أوفى بعهده من الله ، ولا أصدق منه قيلاً ، فعلمت أن نصره لها أقوى وأثبت وأدوم ، وأعظم فائدة من نصرها هى لنفسها ، أو نصر مخلوق مثلها لها ، ولا يقوى على هذا إلا بالسبب السادس .

السبب السادس : وهو الإقبال على الله ، والإخلاص له .

وجعل محبته ورضاه والإنابة إليه فى محل خواطر نفسه ، وأمانيها تدب فيها الخواطر شيئاً فشيئاً ، حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية ، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها فى محاب الرب ، والتقرب إليه وتملقه وترضيه ، واستعطافه وذكره كما يذكر المحب التام المحبة محبوبه المحسن إليه الذى قد امتلأت جوانحه من حبه ، فلا يستطيع قلبه انصرافاً عن ذكره ، ولا روحه انصرافاً عن محبته ، فإذا صار كذلك فكيف يرضى لنفسه أن يجعل بيت أفكاره وقلبه معموراً

بالفكر فى حاسده والباغى عليه ، والطريق إلى الانتقام منه ، والتدبير عليه ؟

هذا مالا يتسع له إلا قلب خراب لم تسكن فيه محبة الله وإجلاله وطلب مرضاته ، بل إذا مسه طيف من ذلك واجتاز ببابه من خارج ، ناداه حرس قلبه : إياك وحمى الملك ، اذهب إلى بيوت الخانات التى كل من جاء حل فيها ، ونزل بها ، مالك ولبيت السلطان الذى أقام اليزك[6] وأدار عليه الحرس ، وأحاطه بالسور ، قال تعالى حكاية عن عدوه إبليس أنه قال : ﴿ **فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمعِينَ ، إلَّا عبَادَكَ مِنْهُمُ المُخْلصِينَ** ﴾[7] ، فقال تعالى : ﴿ **إنَّ عِبادى لَيْسَ لَكَ عَليْهِمْ سُلْطَانٌ** ﴾[8] ، وقال : ﴿ **إنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذينَ آمنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتوكَلُّونَ * إنَّما سُلْطَانُهُ عَلى الَّذين يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ** ﴾[9] وقال فى حق الصديق يوسف ﷺ : ﴿ **كَذلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا المُخْلصِينَ** ﴾[10] .

فما أعظم سعادة من دخل هذا الحصن ، وصار داخل اليزك ، لقد آوى إلى حصن لا خوف على من تحصن به ، ولا ضيعة على من آوى إليه ، ولا مطمع للعدو فى الدنو إليه منه ﴿ **وَذلِكَ فَضْلُ الله**

---

(٦) لعلها بمعنى السياج .

(٧) سورة ص : ٨٢ .

(٨) سورة الحجر : ٤٢ .

(٩) سورة النحل : ٩٩ .

(١٠) سورة يوسف : ٢٤ .

﴿يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾[11].

السبب السابع : تجريد التوبة إلى الله من الذنوب التى سلطت عليه أعداءه .

فإن الله تعالى يقول : ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾[12] وقال لخير الخلق ، وهم أصحاب نبيه دونه ﷺ : ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُم : أَنَّىٰ هٰذا ؟ قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ﴾[13].

فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنبٍ يعلمه أو لا يعلمه ، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف مايعلمه منها ، وما ينساه مما عمله أضعاف مايذكره .

وفى الدعاء المشهور : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » .

فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لايعلمه أضعاف أضعاف مايعلمه ، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب .

ولقى بعض السلف رجل فأغلظ له ونال منه ، فقال له : قف حتى أدخل البيت ، ثم أخرج إليك ، فدخل فسجد لله وتضرع إليه وتاب وأناب إلى ربه ، ثم خرج إليه فقال له : ما صنعت ؟ فقال : تبت إلى الله من الذنب الذى سلطك به على .

---

(١١) سورة الحديد : ٢١ .

(١٢) سورة الشورى : ٣٠ .

(١٣) سورة آل عمران : ١٦٥ .

وسنذكر إن شاء الله تعالى أنه ليس فى الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها . فإذا عوفى العبد من الذنوب عوفى من موجباتها ، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذى وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح .

وعلامة سعادته : أن يعكس فكره ونظره على نفسه وذنوبه وعيوبه ، فيشتغل بها وبإصلاحها وبالتوبة منها ، فلا يبقى فيه فراغ لتدبر مانزل به ، بل يتولى هو التوبة وإصلاح عيوبه ، والله يتولى نصرته وحفظه ، والدفع عنه ولابد .

فما أسعده من عبد ، وما أبركها من نازلة نزلت به ، وما أحسن أثرها عليه ، ولكن التوفيق والرشد بيد الله ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، فما كل أحد يوفق لهذا ، لا معرفة به ، ولا إرادةً له ، ولا قدرة عليه ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

السبب الثامن : الصدقة والإحسان ما أمكنه .

فإن لذلك تأثيراً عجيباً فى دفع البلاء ، ودفع العين ، وشر الحاسد ، ولو لم يكن فى هذا إلا بتجارب الأمم قديماً وحديثاً لكفى به .

فما تكاد العين والحسد والأذى يتسلط على محسن متصدق ، وإن أصابه شيء من ذلك كان معاملاً فيه باللطف والمعونة والتأييد ، وكانت له فيه العاقبة الحميدة .

فالمحسن المتصدق فى خفارة إحسانه وصدقته ، عليه من الله جنة واقية ، وحصن حصين .

وبالجملة : فالشكر حارس النعمة من كل مايكون سبباً لزوالها .

ومن أقوى الأسباب : حسد الحاسد والعائن .. فإنه لا يفتر ولا ينى[١٤] ، ولا يبرد قلبه حتى تزول النعمة عن المحسود ، فحينئذ يبرد أنينه وتنطفىء ناره .. لا أطفأها الله – فما حرس العبد نعمة الله عليه بمثل شكرها ، ولا عرضها للزوال بمثل العمل فيها بمعاصى الله ، وهو كفران النعمة ، وهو باب إلى كفران المنعم .

فالمحسن المتصدق يستخدم جنداً وعسكراً يقاتلون عنه وهو نائم على فراشه ، فمن لم يكن له جند ولا عسكر ، وله عدو ، فإنه يوشك أن يظفر به عدوه ، وإن تأخرت مدة الظفر . والله المستعان .

السبب التاسع : وهو من أصعب الأسباب على النفس ، وأشقها عليها ، ولا يوفق له إلا من عظم حظه من الله ــ وهو إطفاء نار الحاسد والباغى والمؤذى بالإحسان إليه ، فكلما ازداد أذى وشراً وبغياً وحسداً ازددت إليه إحساناً ، وله نصيحة ، وعليه شفقةً . وما أظنك تصدق بأن هذا يكون ، فضلاً عن أن تتعاطاه .

فاسمع الآن قوله عز وجل : ﴿ **وَلَا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ، ادْفَعْ بالَّتى هِىَ أحْسَنُ فإذَا الَّذى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ ولِىٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إلاَّ الَّذينَ صَبَروا . ومايُلقَّاهَا إلا ذو حَظٍّ عظيمٍ . وَإمَّا يَنزغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطانِ نَزْغ فاسْتَعِذْ باللهِ . إنَّه هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ** ﴾[١٥]، وقال : ﴿ **أولئِكَ يُؤْتَوْنَ أجرَهُمْ مَرَّتَيْن بِمَا**

---

(١٤) يضعف .

(١٥) سورة فصلت : ٣٤ .

صَبَروا ، وَيدْرءونَ بالحسَنةِ السَّيِّئةَ . وَمِمَّا رَزَقْناهُمْ يُنفِقُونَ ﴾[16].

وتأمل حال النبى ﷺ إذ ضربه قومه حتى أدموه ، فجعل يسلت الدم عنه ، ويقول : « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون »[17]. كيف جمع فى هذه الكلمات أربع مقامات من الإحسان ، قابل بها إساءتهم العظيمة إليه ؟

أحدها : عفوه عنهم .

والثانى : استغفاره لهم .

والثالث : اعتذاره عنهم بأنهم لا يعلمون .

والرابع : استعطافه بإضافتهم إليه . فقال : « اغفر لقومى » كما يقول الرجل لمن يشفع عنده فيمن يتصل به : هذا ولدى ، هذا غلامى ، هذا صاحبى ، فهبه لى .

واسمع الآن ماالذى يسهل هذا على النفس ، ويطيبه إليها وينعمها به :

اعلم أن لك ذنوباً بينك وبين الله ، تخاف عواقبها ، وترجوه أن يعفو عنها ويغفرها لك ويهبها لك ، ومع هذا لايقتصر على مجرد العفو والمسامحة ، حتى ينعم عليك ويكرمك ، ويجلب إليك من المنافع والاحسان فوق ماتؤمله .

فإذا كنت ترجو هذا من ربك ، وتحب أن يقابل به إساءتك ، فما

---

(١٦) سورة القصص : ٥٤ .

(١٧) أخرجه البخارى (٢٤٩/١٢) ومسلم (١٧٩٢) عن ابن مسعود بنحوه .

أولاك وأجدرك أن تعامل به خلقه ، وتقابل به إساءتهم ؟ ليعاملك الله تلك المعاملة ، فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تعمل مع الناس فى إساءتهم فى حقك يفعل الله معك فى ذنوبك وإساءتك ، جزاءً وفاقاً ، فانتقم بعد ذلك ، أو اعف ، وأحسن أو اترك . فكما تدين تدان ، وكما تفعل مع عباده يفعل معك .

فمن تصور هذا المعنى ، وشغل به فكره ، هان عليه الإحسان إلى من أساءَ إليه .

وهذا مع مايحصل له بذلك من نصر الله ومعيته الخاصة . كما قال النبى ﷺ للذى شكا إليه قرابته ، وأنه يحسن إليهم ، وهم يسيئون إليه ، فقال : « لا يزال معك من الله ظهير ، مادمت على ذلك ».[18]

هذا مع مايتعجله من ثناء الناس عليه ، ويصيرون كلهم معه على خصمه ، فإن كل من سمع أنه محسن إلى ذلك الغير ، وهو مسيء إليه ، وجد قلبه ودعاءه وهمته مع المحسن على المسيء ، وذلك أمر فطرى ، فطر الله عليه عباده .

فهو بهذا الإحسان ، قد استخدم عسكراً لا يعرفهم ولا يعرفونه ، ولا يريدون منه إقطاعاً ولا خبزاً .

هذا مع أنه لابد له مع عدوه وحاسده من إحدى حالتين :

إما أن يملكه بإحسانه ، فيستعبده وينقاد له ويذل له ، ويبقى الناس إليه .

---

(١٨) أخرجه مسلم (٢٥٥٨) وأحمد (٢/١٨١ و ٢٠١ و ٢٠٠ و ٤١٢ و ٤٨٤)، والبغوى (٣٤٣٦) عن أبى هريرة .

وإما أن يفتت كبده ويقطع دابره ، إن أقام على إساءته إليه ، فإنه يذيقه بإحسانه أضعاف ماينال منه بانتقامه .

ومن جرب هذا عرفه حق المعرفة . والله هو الموفق والمعين ، بيده الخير كله ، لا إله غيره ، وهو المسؤول أن يستعملنا وإخواننا فى ذلك بمنه وكرمه .

وفى الجملة : ففى هذا المقام من الفوائد ما يزيد على مئة منفعة للعبد، عاجلة وآجلة.

السبب العاشر : وهو الجامع لذلك كله ، وعليه مدار هذه الأسباب وهو تجريد التوحيد ، والترحل بالفكر فى الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم ، والعلم بأن هذه الآلات بمنزلة حركات الرياح ، وهى بيد محركها ، وفاطرها وبارئها ، ولا تضر ولا تنفع إلا بإذنه ، فهو الذى يحسن عبده بها ، وهو الذى يصرفها عنه وحده لا أحد سواه .

قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إلاّ هُوَ ، وإنْ يُرِدْكَ بِخَيرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ** ﴾[19].

وقال النبى ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما : « واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء كتبه الله عليك »[20].

---

(١٩) سورة يونس : ١٠٧ .

(٢٠) قطعة من حديث : « احفظ الله يحفظك » .

فإذا جرد العبد التوحيد فقد خرج من قلبه خوف ماسواه ، وكان عدوه أهون عليه من أن يخافه مع الله بل يفرد الله بالمخافة وقد أمنه منه ، وخرج من قلبه اهتمامه به ، واشتغاله به ، وفكره فيه ، وتجرد لله محبة وخشية وإنابة وتوكلاً ، واشتغالاً به عن غيره ، فيرى أن إعماله فى أمر عدوه وخوفه منه واشتغاله به من نقص توحيده ، وإلا فلو جرد توحيده لكان له فيه شغل شاغل ، والله يتولى حفظه والدفع عنه ، فإن الله يدافع عن الذين آمنوا ، فإن كان مؤمناً بالله ، فالله يدافع عنه ولابد .

وبحسب إيمانه يكون دفاع الله عنه ، فإن كمل إيمانه كان دفع الله عنه أتم دفع ، وإن مزج ، مزج له . وإن كان مرةً ومرةً فالله له مرةً ومرةً ، كما قال بعض السلف : من أقبل على الله بكليته أقبل الله عليه جملة ، ومن أعرض عن الله بكليته أعرض الله عنه جملة ، ومن كان مرةً ومرةً فالله له مرةً ومرةً .

فالتوحيد حصن الله الأعظم الذى من دخله كان من الآمنين ، قال بعض السلف : من خاف الله خافه كل شيء ، ومن لم يخف الله أخافه من كل شيء .

هذه عشرة أسباب يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر ، وليس له أنفع من التوجه إلى الله وإقباله عليه ، وتوكله عليه ، وثقته به ، وأن لا يخاف معه غيره ، بل يكون خوفه منه وحده ، ولا يعلق قلبه بغيره ، ولا يستغيث بسواه ، ولا يرجو إلا إياه ، ومتى علق قلبه

بغيره ورجاه وخافه : وكل إليه وخذل من جهته ، فمن خاف شيئاً غير الله سلط عليه ، ومن رجا شيئاً سوى الله خذل من جهته وحرم خيره ، هذه سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

تمت عن كتاب بدائع الفوائد لابن القيم

أخرج البخارى ـ رحمه الله ـ فى هذا الموضوع مجموعة من الأحاديث فى أبواب متفرقة :

١ ـ عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : إن النبى ﷺ ـ كان ينفث على نفسه ـ فى المرض الذى مات فيه ـ بالمعوذات ، فلما ثقل عليه كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيده نفسه لبركتها . فسألت الزهرى : كيف ينفث؟ قال : كان ينفث على يديه ثم يمسح بهما وجهه (١٠/ ١٩٥) .

٢ ـ عن أبى سعيد الزهرى ـ رضى الله عنه ـ أن ناساً من أصحاب النبى ﷺ ـ أتوا على حى من أحياء العرب ، فلم يَقْرُوهُمْ . فبينما هم كذلك إذ لدغ سيد أولئك ، فقالوا : هل معكم دواء أوراقٍ؟ فقالوا : إنكم لم تقرونا ، ولا نفعل حتى تجعلوا لنا جعلاً . فجعلوا قطيعاً من الشاء . فجعل يقرأ بأم القرآن ويجمع بزاقه ويتفل ، فبرأ ، فأتوا بالشاء ، فقالوا : لا نأخذه حتى نسأل النبى ﷺ ـ فسألوه ، فضحك وقال : **«وَمَا أَدْرَاكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ خُذُوهَا وَاضْرِبُوا لِيَ بِسَهْمٍ»** (١٠/١٩٨) .

٣ ـ عن ابن عباس أن نفراً من أصحاب النبى ـ ﷺ ـ مروا بماء فيهم لديغ ، أو سليم ـ فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال : هل فيكم من راقٍ؟ إن فى الماء رجلاً لديغاً ، أو سليماً ، فانطلق رجل منهم فقرأ بفاتحة الكتاب على شاء ، فبرأ ، فجاء بالشاء إلى أصحابه ، فكرهوا ذلك وقالوا : أخذت على كتاب الله أجراً ؟، حتى قدموا

المدينة فقالوا : يارسول الله ﷺ ، أخذ على كتاب الله أجراً؟ فقال رسول الله ﷺ ـ: «**إِنَّ أَحَقَّ مَاأَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ**» (١٩٨/١٠ ـ ١٩٩) .

٤ ـ عن أبى سلمة قال : سمعت أبا قتادة يقول : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : «**الرُّؤْيَا مِنَ اللهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ؛ فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَنْفُثْ حِينَ يَسْتَيْقِظُ ـ ثلاث مرات ـ وَيَتَعَوَّذْ مِنْ شَرِّهَا، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ**» وقال أبو سلمة: فإن كنت لأرى الرؤيا أثقل علىّ من الجبل، فما هو إلا أن سمعت هذا الحديث فما أباليها . (١٠/ ٢٠٨) .

٥ ـ عن عائشة ـ رضى الله عنه ـ قالت : كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا أوى إلى فراشه نفث فى كفيه بـ«**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ**» و«**الْمُعَوِّذَتَيْنِ**» جميعاً، ثم يسمح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده . قالت عائشة : فلما اشتكى كان يأمرنى أن أفعل ذلك به : (٢٠٩/١٠) .

٦ ـ عن ابن عباس ـ رضى الله عنه ـ قال : خرج علينا النبى ـ ﷺ ـ يوماً فقال : «**عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَجَعَلَ يَمُرُّ النَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلُ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيُّ مَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، وَرَأَيْتُ سَوَادًا كَثِيرًا سَدَّ الْأُفُقَ، فَرَجَوْتُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ أُمَّتِي، فَقِيلَ : هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ . ثُمَّ قِيلَ لِي : انْظُرْ . فرأيتُ سوادًا كثيراً سَدَّ الْأُفُقَ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ هَكَذَا وَهَكَذَا، فَرَأَيْتُ سَوادًا كَثِيراً سَدَّ الْأُفُقَ . فَقِيلَ : هَؤُلَاءِ أُمَّتُكَ وَمَعَ هَؤُلَاءِ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ**» فتفرق الناس ولم يبين لهم . فتذاكر أصحاب النبى ـ ﷺ ـ فقالوا : أما نحن فولدنا فى الشرك ، ولكنا

آمنا بالله ورسوله ، ولكن هؤلاء هم أبناؤنا . فبلغ النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « **هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ وَلَا يَكْتَوُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** » . فقام عُكَّاشَةُ بن مِحْصَنٍ فقال : أمنهم أنا يا رسول الله؟ قال : « نعم » . فقام آخر فقال : أمنهم أنا؟ فقال : « **سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ** » (١٠/ ٢١١) .

٧ ـ عن عبد العزيز بن صهيب ـ قال : دخلت أنا وثابت على أنس ابن مالك ، فقال ثابت : يا أبا حمزة اشتكيتُ . فقال أنس : ألا أرقيك برقية رسول الله ـ ﷺ ـ؟ قال: بلى . قال : « **اللهم ربَّ الناسِ ، مُذْهِبَ الْبَاسِ ، اشْفِ ، أَنْتَ الشَّافِي ، لَا شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا** » (٢٠٦/١٠) .

٨ ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ: أن النبى ـ ﷺ ـ كان يُعَوِّذُ بعض أهله ، يمسح بيده اليمنى ويقول : اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ ، أَذْهِبِ الْبَاسَ ، وَاشْفِهِ وَأَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءً لَا يُغَادِرُ سَقَمًا » . (٢٠٦/١٠) .

٩ ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقول للمريض: « **بِاسْمِ اللهِ ، تُرْبَةُ أَرْضِنَا ، بِرِيقَةِ بَعْضِنَا ، يشْفَى سَقِيمُنَا ، بِإِذْنِ رَبِّنَا** » (١٠/ ٢٠٦) . .

١٠ ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ـ ﷺ ـ كان يرقى يقول : « **امْسَحِ الْبَاسَ ، رَبَّ النَّاسِ ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ ، لَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا أَنْتَ** » (٢٠٦/١٠) .

١١ ـ عن عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه قال : سأل عائشة ـ رضى الله عنها ـ عن الرقية من الحمة فقالت : رخص النبى ـ ﷺ ـ الرقية من كل ذى حمة . (١٠/ ٢٠٥) .

١٢ ـ عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : أمرنى النبى ـ ﷺ ـ أو أمر ـ أن يسترقى من العين. (١٠/١٩٩) .

١٣ ـ عن أم سلمة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ـ ﷺ ـ رأى فى بيتها جارية فى وجهها سفعة ، فقال : **«اسْتَرْقُوا لَهَا فَإِنَّ بِهَا النَّظْرَةَ»** . (١٠/ ١٩٩) .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: الرقى ـ بضم الراء وبالقاف ـ مقصور ، جمع رقية ـ بسكون القاف ـ يقال : رقى ـ بالفتح ـ فى الماضى ، يرقى ـ بالكسر ـ فى المستقبل، ورقيت فلاناً ـ بكسر القاف ـ أرقيه ، واسترقى : طلب الرقية ، والجمع بغير همز ، وهو بمعنى التعويذ ـ بالذال المعجمة . (١٠/١٩٥) .

شـــروط الـرقى

وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاثة شروط :

١ ـ أن يكون بكلام الله تعالى أو بأسمائه وصفاته .

٢ ـ وباللسان العربى، أو بما يعرف معناه من غيره .

٣ ـ وأن يعتقد أن الرقية لاتؤثر بذاتها، بل بذات الله تعالى .

واختلفوا فى كونها شرطاً ، والراجح أنه لابد من اعتبار الشروط المذكورة ، ففى صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك، قال : كنا نرقى فى الجاهلية ، فقلنا : يارسول الله ، كيف ترى فى ذلك ؟ فقال : **«اعْرِضُوا عَلَىَّ رُقَاكُمْ، لَابَأْسَ بِالرُّقَى، مَالَمْ يَكُنْ فِيهِ شِرْكٌ»**. وله من حديث جابر: نهى رسول الله ـ ﷺ ـ عن الرقى، فجاء آل عمرو بن حزم فقالوا : يارسول الله ، إنه كانت لنا رقية نرقى بها من العقرب. قال : فعرضوا عليه ، فقال : **«مَا أَرَى بَأْسًا مَنِ**

اسْتَطَاعَ أَنْ يَنفَعَ أَخَاهُ فَلْيَنْفَعْهُ» .

وقد تمسك قوم بهذا العموم فأجازوا كل رقية جربت منفعتها، ولو لم يعقل معناها. لكن دل حديث عوف، أنه مهما كان من الرقى يؤدى إلى الشرك يمنع، ومالا يعقل معناه لا يؤمن أن يؤدى إلى الشرك، فيمتنع احتياطاً، والشرط الآخر لابد منه. وقال قوم: لاتجوز الرقية إلا مِنَ الْعَيْنِ وَاللَّدْغَةِ، كما فى حديث عمران بن حصين: «**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**» وأجيب بأن معنى الحصر فيه أنهما أصل كل مايحتاج إلى الرقية، فيلتحق بالعين جواز رقية من به خبل أو مس أو نحو ذلك؛ لاشتراكها فى كونها تنشأ عن أحوال شيطانية من إنس أو جنى، ويلتحق بالسم كل ماعرض للبدن من قرح ونحوه من المواد السمية .

وقد وقع عند أبى داود فى حديث أنس مثل حديث عمران، وزاد: «أَوْ دَمٍ». وفى مسلم من طريق يوسف بن عبد الله بن الحارث عن أنس، قال: «**رَخَّصَ رَسُولُ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ فِي الرُّقَى مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ وَالنَّمْلَةِ**». وفى حديث آخر: «**وَالْأُذُنِ**» .

ولأبى داود من حديث الشفاء بنت عبد الله: أن النبىَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها: «**أَلَا تُعَلِّمِينَ هَذِهِ ـ يعني حفصة ـ رُقْيَةَ النَّمْلَةِ؟**» والنملة: قروح تخرج فى الجنب وغيره من الجسد .

وقيل: المراد بالحصر معنى الأفضل، أى: لا رقية أنفع، كما قيل: لا سيف إلا ذو الفقار. وقال قوم: المنهى عنه من الرقى مايكون قبل وقوع البلاء، والمأذون فيه ماكان بعد وقوعه. ذكره ابن عبدالبر

والبيهقى وغيرهما، وفيه نظر، وكأنه مأخوذ من الخبر الذى قرنت فيه التمائم بالرقى، فأخرج أبو داود وابن ماجه، وصححه الحاكم من طريق ابن أخى زينب امرأة ابن مسعود، عنها عن ابن مسعود، رفعه : « **إنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ** » وفى الحديث قصة .

والتمائم ـ جمع تميمة ـ وهى خرز أو قلادة تعلق فى الرأس، كانوا فى الجاهلية يعتقدون أن ذلك يدفع. والتولة ـ بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً ـ: شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر. وإنما كان ذلك من الشرك لأنهم أرادوا دفع المضار وجلب المنافع من عند غير الله، ولا يدخل فى ذلك ما كان بأسماء الله وكلامه ، فقد ثبت فى الأحاديث استعمال ذلك وقبول وقوعه ، كما فى حديث عائشة، أنه ـ ﷺ ـ « **كان إذا أوى إلى فراشه ينفث بالمعوذات ويمسح بهما وجهه** » .... الحديث . وحديث ابن عباس أنه ـ ﷺ ـ: « **كان يعوذ الحسن والحسين بكلمات الله التَّامَّةِ من كل شيطان وَهَامَةٍ** » الحديث ..

وصحح الترمذى من حديث خولة بنت حكيم مرفوعاً : « **مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَتَحَوَّلَ** » . وعند أبى داود والنسائى بسند صحيح عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن رجل من أسلم ، جاء رجل فقال : لُدِغْتُ الليلةَ فلم أَنَمْ ، فقال له النبى ـ ﷺ ـ « **لَوْ قُلْتَ حِينَ أَمْسَيْتَ : أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ لَمْ يَضُرَّكَ** » .

والأحاديث فى هذا المعنى موجودة ، لكن يحتمل أن يقال : إن الرقى أخص من التعوذ ، وإلا فالخلاف فى الرقى مشهور ، ولا خلاف

فى مشروعية الفزع إلى الله تعالى والالتجاء إليه فى كل ماوقع وما يتوقع .

وقال ابن التين : الرقى بالمعوذات وغيرها من أسماء الله هو الطب الروحانى ، إذا كان على لسان الأبرار من الخلق حصل الشفاء بإذن الله تعالى ، فلما عز هذا النوع فزع الناس إلى الطب الجسمانى وتلك الرقى المنهى عنها التى يستعملها المعزم وغيره ممن يدعى تسخير الجن له ، فيأتى بأمور مشتبهة مركبة من حق وباطل، يجمع إلى ذكر الله وأسمائه مايشوبه من ذكر الشياطين والاستعانة بهم بِمَرَدَتِهِمْ ، ويقال : إن الحية لعداوتها للإنسان بالطبع تصادق الشياطين لكونهم أعداء بنى آدم ، فإذا عزم على الحية بأسماء الشياطين أجابت وخرجت من مكانها، وكذا اللديغ إذا رقى بتلك الأسماء سالت سمومها من بدن الإنسان ، فلذلك كره الرقى مالم يكن بذكر الله وأسمائه خاصة وباللسان العربى الذى يعرف معناه ليكون بريئاً من الشرك . وعلى كراهة الرقى بغير كتاب الله علماء الأمة .

أقسام الرقى

وقال القرطبى : الرقى ثلاثة أقسام :

أحدها : ماكان يرقى به فى الجاهلية مما لا يعقل معناه ، فيجب اجتنابه لئلا يكون فيه شرك أو يؤدى إلى الشرك .

الثانى : ماكان بكلام الله وبأسمائه فيجوز ، فإن كان مأثوراً فيستحب .

الثالث : ماكان بأسماء غير الله من ملك صالح أو معظم من المخلوقات كالعرش .

قال : فهذا ليس من الواجب اجتنابه ، ولا من المشروع الذى يتضمن الالتجاء إلى الله والتبرك بأسمائه ، فيكون تركه أولى . إلا أن يتضمن تعظيم المرق به فينبغى أن يجتنب ، كالحلف بغير الله تعالى ، وقال الربيع : سألت الشافعى عن الرقية فقال : لا بأس أن يرقى بكتاب الله وما يعرف من ذكر الله. قلت : أيرقى أهل الكتاب المسلمين؟ . قال : نعم ، إذا رقوا بما يعرف من كتاب الله وبذكر الله ا. هـ .

وفى «الموطأ» أن أبا بكر قال لليهودية التى كانت ترقى عائشة : «**ارْقِيهَا بِكِتَابِ اللهِ**» . وروى ابن وهب عن مالك كراهة الرقية بالحديدة والملح وعقد الخيط والذى يكتب خاتم سليمان . وقال : لم يكن ذلك من أمر الناس القديم .

وقال المازرى : اختلف فى استرقاء أهل الكتاب ، فأجازها قوم وكرهها مالك لئلا يكون مما بدلوه ، وأجاب من أجاز بأن مثل هذا يبعد أن يقولوه ، وهو كالطب ، سواء كان غير الحاذق يحسن أن يقول ، والحاذق يأنف أن يبدل حرصاً على استمرار وصفه بالحذق لترويج صناعته . والحق أنه يختلف الأشخاص والأحوال. وسُئِل ابن عبد السلام عن الحروف المقطعة فمنع منها مالا يعرف لئلا يكون فيها كفر . (١٠/١٩٥ ـ ١٩٧) .

تمسك من كره الرقى والكى من بين سائر الأدوية ، وزعم أنهما قادحان فى التوكل دون غيرهما، وأجاب العلماء عن ذلك بأجوبة : أحدها : قاله الطبرى والمازرى وطائفة ، أنه محمول على جانب اعتقاد الطبائعيين فى أن الأدوية تنفع بطبعها ، كما كان أهل الجاهلية يعتقدون . وقال غيره : الرقى التى يحمد تركها ماكان من كلام

الجاهلية ومن الذى لا يعقل معناه لاحتمال أن يكون كفراً، بخلاف الرقى بالذكر ونحوه ، وتعقبه عياض وغيره ، بأن الحديث يدل على أن للسبعين ألفاً[1] مزية على غيرهم ، وفضيلة انفردوا بها عمن شاركهم فى أصل الفضل والديانة ، ومن كان يعتقد أن الأدوية تؤثر بطبعها ، أو يستعمل رقى الجاهلية ونحوها فليس مسلماً ، فلا يسلم هذا الجواب .

ثانيها: قال الداودى وطائفة : إن المراد بالحديث : الذين يجتنبون فعل ذلك فى الصحة خشية وقوع الداء ، وأما من يستعمل الدواء بعد وقوع الداء به فلا . وهذا اختيار ابن عبد البر، غير أنه معترض عليه بثبوت الاستعاذة قبل وقوع الداء .

ثالثها : قال الحليمى : يحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المذكورين فى الحديث من غفل عن أحوال الدنيا وما فيها من الأسباب المعدة لدفع العوارض ، فهم لا يعرفون الاكتواء ولا الاسترقاء ، وليس لهم ملجأ فيما يعتريهم إلا الدعاء والاعتصام بالله والرضا بقضائه، فهم غافلون عن طب الأطباء ، ورقى الرقاة ، ولا يحسنون من ذلك شيئاً . والله أعلم .

رابعها : أن المراد بترك الرقى والكى، الاعتماد على الله فى دفع الداء والرضا بقدره، لا القدح فى جواز ذلك ، لثبوت وقوعه فى الأحاديث الصحيحة وعن السلف الصالح ، لكن مقام الرضا والتسليم أعلى من تعاطى الأسباب ، وإلى هذا نحا الخطابى ومن تبعه .

---

(١) السبعون ألفا هم المذكورون في حديث ابن عباس ، يدخلون الجنة بغير حساب لأنهم لايتطيرون ولايكتوون ولايسترقون وعلى ربهم يتوكلون .

قال ابن الأثير : هذا من صفة الأولياء المعرضين عن الدنيا وأسبابها وعلائقها ، وهؤلاء هم خواص الأولياء ، ولا يرد على هذا وقوع ذلك من النبى ـ ﷺ ـ فعلاً وأمراً، لأنه كان فى أعلى مقامات العرفان ودرجات التوكل، فكان ذلك منه للتشريع وبيان الجواز ، ومع ذلك فلا ينقص ذلك من توكله ، لأنه كان كامل التوكل يقيناً ، فلا يؤثر فيه تعاطى الأسباب شيئاً ، بخلاف غيره ولو كان كثير التوكل ، لكن من ترك الأسباب وفوض وأخلص فى ذلك كان أرفع مقاماً .

قال الطبرى : قيل : لا يستحق التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف من شئ ألبتة، حتى السبع الضارى والعدو العادى ، ولا من لم يسع فى طلب رزق ولا فى مداواة ألم . والحق أن من وثق بالله وأيقن أن قضاءه عليه ماض، لم يقدح فى توكله تعاطيه الأسباب اتباعاً لسنته وسنة رسوله ، فقد ظاهر ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحرب بين درعين ، ولبس على رأسه المغفر، وأقعد الرماة على فم الشعب ، وخندق حول المدينة ، وأذن فى الهجرة إلى الحبشة وإلى المدينة ، وهاجر هو، وتعاطى أسباب الأكل والشرب، وادخر لأهله قوتهم ولم ينتظر أن ينزل عليه من السماء ، وهو كان أحق الخلق أن يحصل له ذلك ، وقال للذى سأله : أعقل ناقتى أو أدعها؟ قال : « **اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ** » ، فأشار إلى أن الاحتراز لا يدفع التوكل، والله أعلم . (١٠/٢١١ ـ ٢١٢) .

قال الحافظ ـ رحمه الله ـ: المراد بالمعوذات ، سورة الفلق، والناس، والإخلاص، فيكون من باب التغليب. أو المراد: الفلق والناس، وكل ماورد فى التعويذ فى القرآن ، كقوله تعالى : ﴿وَقُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[٢] ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[٣] وغير ذلك، والأول أولى.

فقد أخرج أحمد وأبو داود والنسائى، وصححه ابن حبان والحاكم من رواية عبد الرحمن بن حرملة عن ابن مسعود أن النبى ـ ﷺ ـ كان يكره عشر خصال ، فذكر فيها الرقى، إلا بالمعوذات ، و «عبد الرحمن بن حرملة» قال البخارى : لا يصح حديثه ، وقال الطبرى : لا يحتج بهذا الخبر لجهالة راويه ، وعلى تقدير صحته فهو منسوخ بالإذن فى الرقية بفاتحة الكتاب . وأشار المهلب إلى الجواب عن ذلك ، بأن فى الفاتحة معنى الاستعاذة ، وهو الاستعانة ، فعلى هذا يختص الجواز بما يشتمل على هذا المعنى .

وقد أخرج الترمذى وحسنه والنسائى من حديث أبى سعيد : كان رسول الله ـ ﷺ ـ يتعوذ من الجان وعين الإنسان حتى نزلت المعوذات ، فأخذ بها وترك ماسواها ، وهذا لا يدل على المنع من التعوذ بغير هاتين السورتين ، بل يدل على الأولوية ، ولا سيما مع ثبوت التعوذ بغيرهما ، وإنما اجتزأ بهما لما اشتملتا عليه من جوامع الاستعاذة من كل مكروه جملة وتفصيلاً . (١٠/١٩٥) .

---

(٢) المؤمنون : ٩٧ .

(٣) النحل : ٩٨ .

وفى الفاتحة معنى الاستعاذة بالله : الاستعانة به ، فمهما كان فيه استعاذة أو استعانة بالله وحده ، أو ما يعطى معنى ذلك فالاسترقاء به مشروع ، ويجاب عن حديث أبى سعيد (أنه - ﷺ - ترك ما عدا المعوذات) بأن المراد بأنه ترك ما كان يتعوذ به من كلام غير القرآن ، ويحتمل أن يكون المراد بعضه ، فإنه اسم جنس يصدق على بعضه ، والمراد ما كان فيه التجاء إلى الله سبحانه ، ومن ذلك بالمعوذات ، وقد ثبتت الاستعاذة بكلمات الله فى عدة أحاديث كما مضى .

قال ابن بطال : فى المعوذات جوامع الدعاء ، نعم أكثر المكروهات من السحر والحسد وشر الشيطان ووسوسته وغير ذلك . فلهذا كان النبى - ﷺ - يكتفى بها . (١٠/١٩٧) .

وقال ابن القيم : إذا ثبت أن لبعض الكلام خواص ومنافع فما الظن بكلام رب العالمين ، ثم بالفاتحة التى لم ينزل[٤] فى القرآن ولا غيره من الكتب مثلها ، لتضمنها جميع معانى الكتاب ، فقد اشتملت على ذكر أصول أسماء الله ومجامعها ، وإثبات المعاد ، وذكر التوحيد ، والافتقار إلى الرب فى طلب الإعانة به ، والهداية منه ، وذكر أفضل الدعاء ، وهو طلب الهداية إلى الصراط المستقيم المتضمن كمال معرفته وتوحيده وعبادته ، بفعل ما أمر به ، واجتناب ما نهى عنه ، والاستقامة عليه ، ولتضمنها ذكر أصناف الخلائق وقسمتهم إلى منعم عليه لمعرفته بالحق والعمل به ، ومغضوب عليه ، لعدوله عن الحق بعد معرفته ، وضال لعدم معرفته له ، مع ما تضمنه من إثبات القدر والشرع والأسماء والمعاد والتوبة وتزكية النفس وإصلاح القلب والرد

---

(٤) فى بعض الكتب (يترك) ولا يستقيم المعنى إلا هكذا (ينزل) .

على جميع أهل البدع ، وحقيق بسورة هذا شأنها أن يستشفى بها من كل داء ، والله أعلم (١٠/١٩٨) .

أما النفث ـ بفتح النون وسكون الفاء بعدها مثلثة ـ فى الرقية ، فهناك من كرهه مطلقاً ، كالأسود بن يزيد ، تمسكاً بقوله تعالى : ﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[٥] ، ومن كره النفث عند قراءة القرآن خاصة كإبراهيم النخعى ، أخرج ذلك ابن أبى شيبة وغيره .

فأما الأسود فلا حجة له فى ذلك ، لأن المذموم ماكان من نفث السحرة وأهل الباطل ، ولايلزم منه ذم النفث مطلقا ، ولاسيما بعد ثبوته فى الأحاديث الصحيحة ، وأما النخعى فالحجة عليه ماثبت فى حديث أبى سعيد الخدرى (رقم ٢ فى بابنا هذا) فقد قصوا على النبى ـ ﷺ ـ القصة ، وفيها أنه قرأ بفاتحة الكتاب ونقل ، ولم ينكر ذلك ـ ﷺ ـ فكان ذلك حجة ، وكذا حديث عائشة (رقم ٥) فهو واضح من قوله ـ ﷺ (١٠/٢٠٩) .

قال عياض : فائدة النفث التبرك بتلك الرطوبة أو الهواء الذى ماسَّه الذكر ، كما يتبرك بغسالة مايكتب من الذكر ، وقد يكون على سبيل التفاؤل بزوال ذلك الألم عن المريض ، كانفصال ذلك عن الراقى ، انتهى (١٠/١٩٧) .

وقوله : « بريقة بعضنا » يدل على أنه كان يتفل عند الرقية ، قال النووى : معنى الحديث أنه أخذ من ريق نفسه على إصبعه السبابة ، ثم وضعها على التراب ، فعلق به شىء منه ، ثم مسح به الموضع العليل

---

(٥) الفلق : ٤ .

أو الجريح ، قائلا الكلام المذكور فى حالة المسح ، (وقد صرحت بذلك رواية مسلم) .

قال القرطبى : فيه دلالة على جواز الرقى من كل الآلام ، وأن ذلك كان أمراً فاشيا معلوما بينهم . قال : ووضع النبى — ﷺ — سبابته بالأرض ، ووضعها عليه ، يدل على استحباب ذلك عند الرقية ، ثم قال : وزعم بعض علمائنا أن السر فيه أن تراب الأرض لبرودته ويبسه ، يبرىء الموضع الذى به الألم ويمنع انصباب المواد إليه ليبسه مع منفعته فى تجفيف الجراح واندمالها . قال : وقال فى الريق : إنه يختص بالتحليل والإنضاج وإبراء الجرح والورم ولاسيما من الصائم الجائع .

وتعقبه القرطبى : أن ذلك إنما يتم إذا وقعت المعالجة على قوانينها من مراعاة مقدار التراب والريق وملازمة ذلك فى أوقاته ، وإلا فالنفث ووضع السبابة على الأرض إنما يتعلق بها ماليس له بال ولا أثر ، وإنما هذا من باب التبرك بأسماء الله تعالى وآثار رسوله . وأما وضع الإصبع بالأرض فلعله لخاصية فى ذلك ، أو لحكمة إخفاء آثار القدرة بمباشرة الأسباب المعتادة .

وقال البيضاوى : قد شهدت المباحث الطبية أن للريق مدخلا فى النضج وتعديل المزاج ، وتراب الوطن له تأثير فى حفظ المزاج ودفع الضرر ، فقد ذكروا أنه ينبغى للمسافر أن يستصحب تراب أرضه إن عجز عن استصحاب مائها ، حتى إذا ورد المياه المختلفة جعل شيئا منه فى سقائه ليأمن مضرة ذلك . ثم إن الرقى والعزائم لها آثار عجيبة تتقاصر العقول عن الوصول إلى كهنها .

وقال التوربشتى : كأن المراد بالتربة : الإشارة إلى فطرة آدم ، والريقة : الإشارة إلى النطفة ، كأنه تضرع بلسان الحال أنك اخترعت الأصل الأول من التراب ، ثم أبدعته منه من ماء مهين ، فَهَيِّنٌ عليك أن تشفى من كانت هذه نشأته .

وقال النووى : قيل : المراد بـ (أرضنا) : أرض المدينة خاصة لبركتها ،و (بعضنا) رسول الله ــ ﷺ ــ لشرف ريقه ، فيكون ذلك مخصوصا . (١٠/٢٠٨) .

وقوله : « فى وجهها سفعة » فى الحديث الثالث عشر ، قال إبراهيم الحربى : هو سواد فى الوجه ، ومنه سفعة الفرس : سواد ناصيته، وعن الأصمعى : حمرة يعلوها سواد . وقيل : صفرة . وقيل : سواد مع لون آخر . وقال ابن قتيبة : لون يخالف لون الوجه ، وكلها متقاربة ، وحاصلها أن بوجهها موضعا على غير لونه الأصلى ، وكأن الاختلاف بحسب اللون الأصلى ، فإن كان أحمر فالسفعة سواد صرف ، وإن كان أبيض فالسفعة صفرة ، وإن كان أسمر فالسفعة حمرة يعلوها سواد .

وذكر صاحب « البارع فى اللغة » أن السفع : سواد الخدين من المرأة الشاحبة ، والشحوب : تغير اللون بهزال أو غيره ، ومنه : سفعاء الخدين ، وتطلق السفعة على العلامة . ومنه: لوجهها سفعة غضب ، وهو راجع إلى تغير اللون ، وأصل السفع : الأخذ بقهر ، ومنه قوله تعالى : ﴿ لَنَسْفَعاً بِالنَّاصِيَةِ ﴾[٦] . ويقال : إن أصل السفع : الأخذ بالناصية ، ثم استعمل فى غيرها . (١٠/٢٠٢) .

---

(٦) العلق : ١٥ .

والحمة ، كما فى الحديث الحادى عشر ، بضم المهملة وتخفيف الميم ، قال ثعلب وغيره : هى سم العقرب . وقال القزاز : قيل : هى شوكة العقرب . وكذا قال ابن سيده : إنها الإبرة التى تضرب بها العقرب والزنبور ، وقال الخطابى : الحمة : كل هامة ذات سم من حية أو عقرب .

وقد أخرج أبو داود من حديث سهل بن حنيف مرفوعا : « لا رقية إلا من نفس أو حمة أو لدغة » فغاير بينهما ، فيحتمل أن يخرج على أن الحمة خاصة بالعقرب ، فيكون ذكر اللدغة بعدها من العام بعد الخاص . (١٠/١٥٦) .

وقد أخرج ابن ماجه من طريق أبى خزامه ، عن أبيه قال : قلت : يارسول الله ، أرأيت رقى نسترقيها ودواء نتداوى به ، هل يرد من قدر الله شيئاً ؟ قال : « **هِيَ مِنْ قَدَرِ اللهِ تَعَالَى** » (١٠/١٣٦) .

أخرج البخارى — رحمه الله — عن أبى هريرة — رضى الله عنه — قال : قال النبى — ﷺ — : « **لَاطِيَرَةَ ، وَخَيْرُهَا الْفَأْلُ** » قالوا : وما الفأل يارسول الله ؟ قال : « **الْكَلِمَةُ الصَّالِحَةُ يَسْمَعُهَا أَحَدُكُمْ** »

وأخرج عن أنس — رضى الله عنه — عن النبى — ﷺ — قال : « **لَاعَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ ، وَيُعْجِبُنِى الْفَأْلُ الصَّالِحُ : الْكَلِمَةُ الْحَسَنَةُ** » .

قال الحافظ — رحمه الله — : الفأل — بفاء ثم همزة ، وقد تسهل — والجمع فئول — بالهمزة جزما — وفى حديث عروة بن عامر الذى أخرجه أبو داود ، قال : ذكرت الطيرة عند رسول الله — ﷺ — فقال : « **خَيْرُهَا الْفَأْلُ ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِماً ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَايَكْرَهُ ، فَلْيَقُل: اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَأْتِى بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ** » .

وقوله : « **وخيرها الفأل** » ، قال الكرمانى تبعا لغيره : هذه الإضافة تشعر بأن الفأل من جملة الطيرة ، وليس كذلك ، بل هى إضافة توضيح ، ثم قال : وأيضا فإن من جملة الطيرة — كما تقدم تقريره — التيامن ، فبين بهذا الحديث ، أنه ليس كل التيامن مردودا كالتشاؤم ، بل بعض التيامن مقبول .

قلت : وفى الجواب الأول دفع فى صدر السؤال ، وفى السؤال

الثانى تسليم السؤال ودعوى التخصيص ، وهو أقرب ، وقد أخرج ابن ماجه بسند حسن عن أبى هريرة رفعه : (كان يعجبه الفأل ويكره الطيرة). وأخرج الترمذى من حديث حابس التميمى ، أنه سمع النبى ـــ ﷺ ـــ يقول : « **الْعَيْنُ حَقٌّ ، وَأَصْدَقُ الطِّيَرَةِ الْفَأْلُ** » فى هذا التصريح أن الفأل من جملة الطيرة لكنه مستثنى .

وقال الطيبى: الضمير المؤنث فى قوله «وخيرها» راجع إلى الطيرة، وقد علم أن الطيرة كلها لا خير فيها، فهو كقوله تعالى ﴿ **أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا** ﴾[1] وهو مبنى على زعمهم ، وهو من إرخاء العنان فى المخادعة ، بأن يجرى الكلام على زعم الخصم حتى لا يشمئز عن التفكر ، فإذا تفكر فأنصف من نفسه قبل الحق ، فقوله : « **خيرها الفأل** » إطماع للسامع فى الاستماع والقبول لا أن فى الطيرة خيرا حقيقة ، أو هو من نحو قولهم : والصيف أحر من الشتاء ، أى : الفأل فى بابه أبلغ من الطيرة فى بابها .

والحاصل أن (أفعل) التفضيل فى ذلك ، إنما هو بين القدر المشترك بين الشيئين ، والقدر المشترك بين الطيرة والفأل تأثير كل منهما فيما هو فيه ، والفأل فى ذلك أبلغ .

قال الخطابى : وإنما كان ذلك ؛ لأن مصدر الفأل عن نطق وبيان ، فكأنه خبر جاء عن غيب ، بخلاف غيره ، فإنه مستند إلى حركة الطائر أو نطقه ، وليس فيه بيان أصلا ، وإنما هو تكلف من يتعاطاه . وقد أخرج الطبرى عن عكرمة قال : كنت عند ابن عباس ، فمر طائر فصاح ، فقال رجل : خير خير . فقال ابن

---

(١) الفرقان : ٢٨ .

عباس : ماعند هذا لاخير ولاشر .

وقال أيضا : الفرق بين الفأل والطيرة ، أن الفأل من طريق حسن الظن بالله ، والطيرة لاتكون إلا فى السوء فلذلك كرهت .

وقال النووى : الفأل يستعمل فيما يسوء وفيما يسر ، وأكثره فى السرور ، والطيرة لاتكون إلا فى الشؤم ، وقد تستعمل مجازا فى السرور ، ا.هـ . وكأن ذلك بحسب الواقع ، وأما الشرع فخص الطيرة بما يسوء والفأل بمايسر ، ومن شرطه ألا يقصد إليه فيصير من الطيرة .

قال ابن بطال : جعل الله فى فطر الناس محبة الكلمة الطيبة والأنس بها ، كما جعل فيهم الارتياح بالمنظر الأنيق والماء الصافى ، وإن كان لايملكه ولا يشربه ، وأخرج الترمذى وصححه من حديث أنس : (أن النبى ـ ﷺ ـ كان إذا خرج لحاجته يعجبه أن يسمع : يانجيح ياراشد) . وأخرج أبو داود بسند حسن عن بريدة : (أن النبى ـ ﷺ ـ كان لايتطير من شىء ، وكان إذا بعث عاملا يسأل عن اسمه ، فإذا أعجبه فرح به ، وإن كره اسمه رؤى كراهة ذلك فى وجهه) .

وذكر البيهقى فى « الشعب » عن الحليمى ماملخصه : كان التطير فى الجاهلية فى العرب إزعاج الطير عند إرادة الخروج للحاجة – فذكر نحو ماتقدم ثم قال ـ: وهكذا كانوا يتطيرون بصوت الغراب ، وبمرور الظباء فسموا الكل تطيرا ، لأن أصله الأول . قال : وكان التشاؤم فى العجم ، إذا رأى الصبى ذاهبا إلى المعلم تشاءم ، أو راجعا تيمن ، وكذا إذا رأى الجمل موقرا حملا تشاءم ، فإن رآه واضعا

حمله تيمن ، ونحو ذلك ، فجاء الشرع برفع ذلك كله وقال : « **مَنْ تَكَهَّنَ أَوْرَدَّهُ عَنْ سَفَرٍ تَطَيُّرٌ فَلَيْسَ مِنَّا** » ، ونحو ذلك من الأحاديث ، وذلك إذا اعتقد أن الذى يشاهده من حال الطير موجبا ماظنه ، ولم يضف التدبير إلى الله تعالى ، فأما إن علم أن الله هو المدبر ، ولكنه أشفق من الشر ، لأن التجارب قضت أن صوتا من أصواتها معلوماً ، أو حالا من أحوالها معلومة يردفها مكروه ، فإن وطن نفسه على ذلك أساء ، وإن سأل الله الخير واستعاذ به من الشر ومضى متوكلا ، لم يضره ماوجد فى نفسه من ذلك ، وإلا فيؤاخذ به ، وربما وقع به ذلك المكروه بعينه الذى اعتقده عقوبة له ، كما كان يقع كثيراً لأهل الجاهلية ، والله أعلم .

قال الحليمى : وإنما كان ـــ ﷺ ـــ يعجبه الفأل ، لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى ، بغير سبب محقق ، والتفاؤل حسن الظن به ، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال .

وقال الطيبى : معنى الترخص فى الفأل والمنع من الطيرة هو أن الشخص لو رأى شيئا فظنه حسنا محرضا على طلب حاجته فليفعل ذلك ، وإن رآه بضد ذلك فلا يقبله ، بل يمضى لسبيله ، فلو قبل وانتهى عن المضى فهو الطيرة التى اختصت بأن تستعمل فى الشؤم ، والله أعلم ، (١٠/٢١٤ – ٢١٥) .

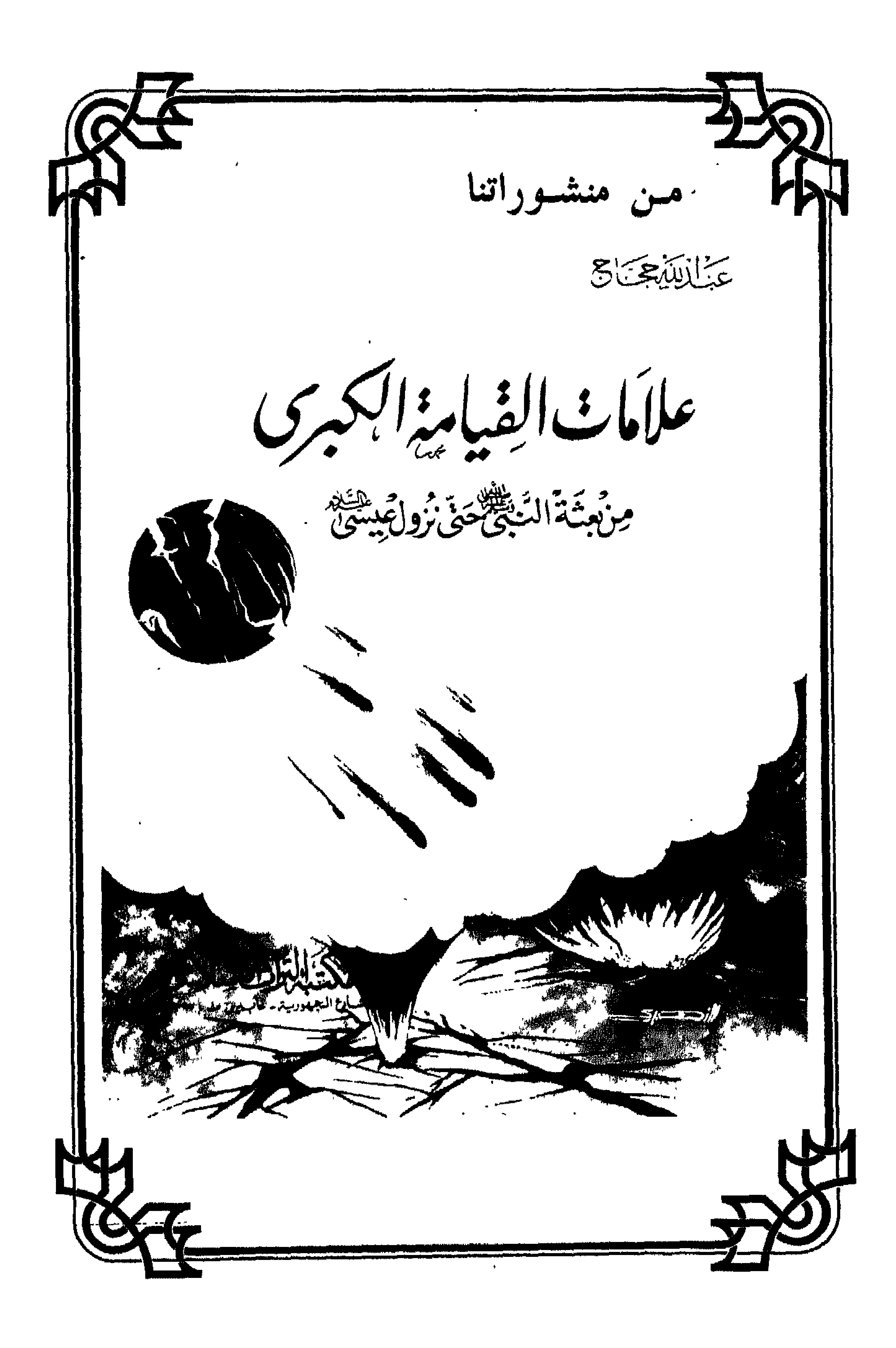
وبعـــد ...

فهذه عدة موضوعات تكلم فيها الإمام الحافظ شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلانى ، فى كتابه (فتح البارى : شرح صحيح البخارى). جمع فيها من أحاديث سيد المرسلين ، وشروحها ، مايملأ النفس اطمئنانا والقلب أمانا ، ويفتح الطريق أمام المسلم فيسير فيه متوكلا ، واثقا بقضاء الله وقدره ، معتقدا أنه ماأصابه لم يكن ليخطئه ، وماأخطأه لم يكن ليصيبه ، متخذا الأسباب فى كل مايفعل ، تاركا النتائج لقدرة الله يخرجها إلى الوجود حسب مشيئته سبحانه ، دون تطير أو تشاؤم ، أما ماكان فيه نصيحة أو إرشاد من النبى الكريم فلا ضير من اقتباسه والتماسه ، فخير الهدى هدى محمد — ﷺ — الذى أرسله ربه رحمة للعالمين ..

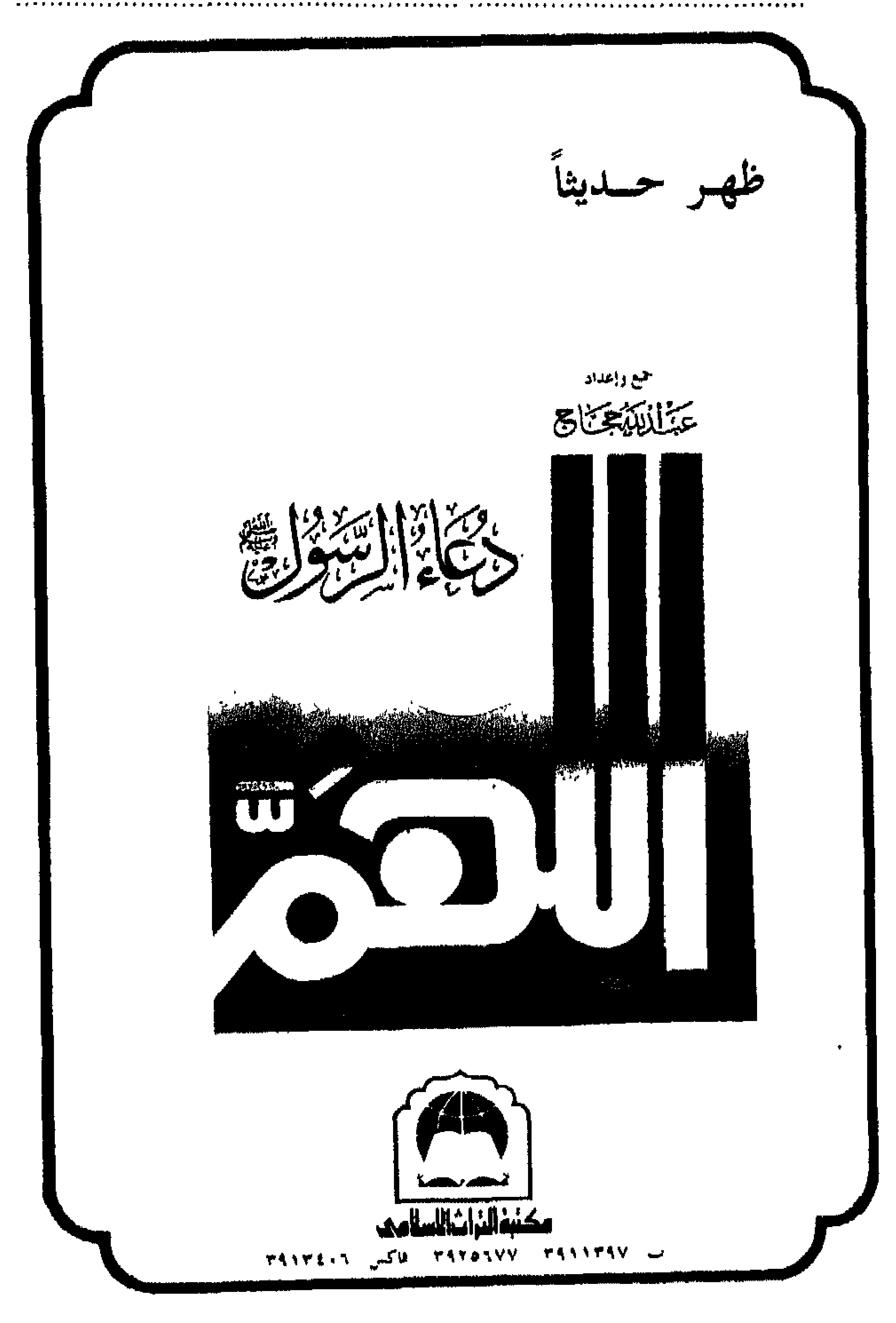
صلاة الله وسلامه ، ورحمته وبركاته على النبى وآله ، ورضى الله تبارك وتعالى عن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين ..

والحمد لله بدءا وختاماً ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

عبد الله حجاج


من منشوراتنا
عبدالله حجاج
علامات القيامة الكبرى
من بعثة النبي ﷺ حتى نزول عيسى عليه السلام

فهـرس الكتـــاب



رقم الايداع : ٤٧٥٤ / ١٩٩٠

طبع بدار نوبار للطباعة

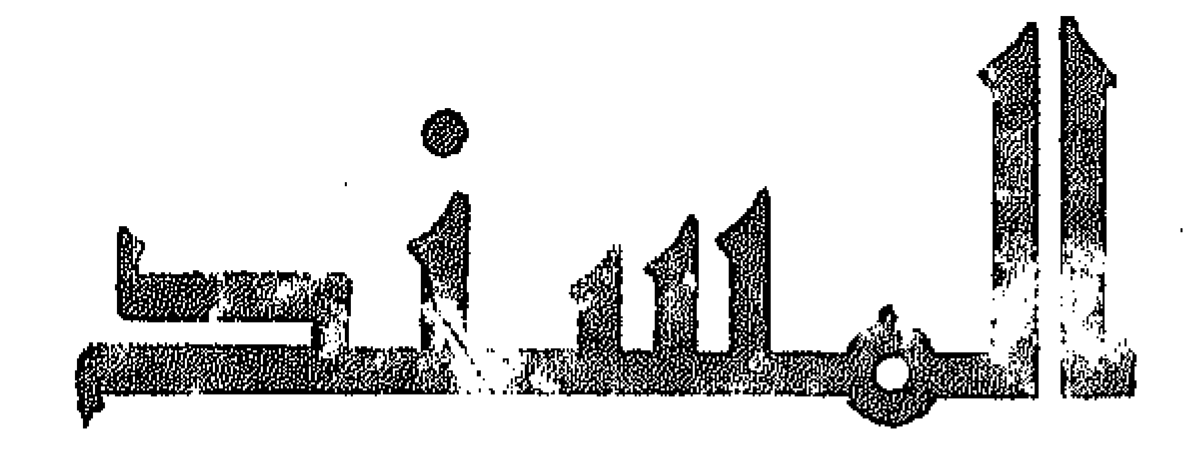
أصدق الحديث كلام الله وخير الهدى هدى محمد ﷺ

صدر حديثاً

في صحبة النبي ﷺ وصحابته الأبرار

أكبر موسوعة شاملة للأحاديث النبوية

أربعين ألف حديث منتقاه من سبعمائة ألف حديث



سبعة أضعاف صحيح البخارى

لشيخ الإسلام الإمام أحمد بن حنبل

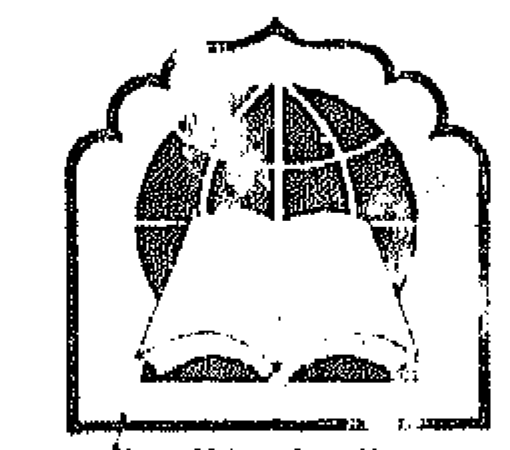
شرحه وخرج أحاديثه وعلق عليها

أحمد محمد شاكر

يصدر تباعاً وكل ١٥ يوم عدد جديد بسعر تشجيعي

العدد بـ ١٥٠ قرش فقط في مكتبة التراث الإسلامي ومع باعة

كتاب لا غنى عنه لمن يريد أن يتعلم أحكام دينه



مكتبة التراث الإسلامي

ت : ٣٩١١٣٩٧ - ٣٩٢٥٦٧٧ - فاكس : ٣٩١٣٤٠٦